القسم الأول

المسلمون والمشكلة الحضارية

١ ـ المسلمون المعاصرون فى مفترق الطرق .

٢ ـ الإسلام والعلم .

٣ ـ ماليزيا والمنهج الحضارى الإسلامى .

٤ ـ تأملات فى قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم .

٥ ـ التضامن الغائب .

٦ ـ دور التقريب فى الوحدة العملية للأمة .

(١)

المسلمون المعاصرون فى مفترق الطرق (*)

تمهيد :

عندما يكون الحديث عن نهضة الأمة الإسلامية وتقدمها وارتقائها فإن الأمر يتطلب منا أن نتعرف أولاً على أهم الأسباب التى أدت بهذه الأمة إلى التراجع الحضارى الراهن . وفى ضوء ذلك يمكن البحث عن أفضل السبل للخروج من هذه الأوضاع المتردية التى تعيشها الأمة منذ عدة قرون .

وحقيقة الأمر أن أى مراقب محايد يقوم بإجراء بحث موضوعى لأحوال عالمنا الإسلامى ستعتريه الدهشة وتنتابه الحيرة لما آلت إليه أوضاع هذه الأمة ذات الحضارة العريقة ، الأمر الذى دعا أحد المفكرين المسلمين المعاصرين إلى وصف الأمة الإسلامية فى عالمنا المعاصر بأنها : " **أمة حائرة فى عالم محيِّر** " . ويعجب المرء أشد العجب ويتساءل : كيف يحدث ذلك لأمة ركّز كتابها المقدس منذ أول لحظة على الأمر بالقراءة ، والإشادة بالعلم ، وبالقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم ، وبالإنسان حامل هذا العلم ؟

(*) محاضرة ألقيت فى ندوة " المنهج الإسلامى الحضارى ونهضة الأمة " بكوالالمبور ــ ماليزيا فى ٢٠٠٦/٦/٢٣م .

إن مشكلات أمتنا الإسلامية كثيرة ومتنوعة ، وفى مقدمة هذه المشكلات أو على رأســـها تأتى **المشكلة الحضارية** ، ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن حل هذه المشكلة يُعد المفتاح الحقيقى لحل بقية المشـــكلات . والقرآن الكريم يعطينا فى هذا الصدد إشارات هادية تضىء لنا الطريق . فلم يكن من قبيل المصادفة أن تكون بداية الوحى القرآنى على محمد ﷺ معنيَّة بالدرجة الأولى بلفت الأنظار والعقول إلى مفاتيح الحضارة المتمثلة فى العلم والبحث والدراســـة لآيات الله فى الكون وفى الإنسان . وتأكيداً لذلك وصف القرآن الكريم العلماء بأنهم أخشى الناس لله لأنهم الذين يستطيعون أن يدركوا أســـرار الخلق وقوانين الكون وجلال الخالق . ومن هنا جعل الإسلام مداد العلماء مساوياً لدماء الشهداء .

وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل ؛ ومن أجل ذلك نود إلقاء نظرة على أحوال عالمنا الإســـلامى بهدف البحث عن الأسباب الحقيقية لهذا التدهور الحضارى القائم ، والبحث أيضاً عن الحـــلول الممكنة للخروج من هـــذا المأزق الخطير الـــذى يحاصر الأمة الإسلامية منذ ما يقرب من خمسة قرون .

* * *

أسباب التخلف الحضارى الراهن

وإذا بحثنا عن أسباب هـذا التدهور القائم - والمتمثل فى التخلف الحضارى الذى لا تخطئه العين فى عالمنا الإسلامى - فإننا سنجد أنفسـنا أمام كم هائل من الأسباب على جميع المستويات الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها .

وحتى لا تتشعب بنا السـبل فى هذا المقام الذى لا يحتمل الإسهاب فى القول نود أن نركز على أهم هـذه الأسباب التى نعتقد أن بقية الأسباب الأخرى تتعلق بها أو ترجع إليها بشكل أو بآخر . ومن أبرز هذه الأسباب فى نظرنا ما يلى :

١ ـ إهمال العلم والحضارة :

ليس هناك من شك فى أن إهمال المسلمين للعلم والحضارة يتصدر قائمة الأسـباب التى أدت إلى التراجع الحضارى فى عالمنا الإسلامى ، حيث لم يعد العلم ولا التقدم الحضارى يشكل أولوية فى قاموس الأمة الإسـلامية . وأبرز مثال على ذلك يتجلى فى ارتفاع نسـبة الأمية فى العالم الإسلامى ، حيث تزيد على ٤٦%[١] ، أى : ما يقرب من نصـف عدد المسلمين فى

---

(١) طبقًا للبيانات الصادرة عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) .

العالم ، فى حين أن النبى ﷺ كان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان يفرج عن الأسير من غزوة بدر إذا علَّم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

ولكن المسلمين اليوم قد تخلوا عن مفاتيح الحضارة وتركوها لغيرهم ، واكتفوا بقشرة حضارية ظاهرية مستوردة يراها المرء فى أنحاء شتى من العالم الإسلامى .

ويعتقد البعض أننا بذلك لا نقل تحضُّراً عن العالم المتقدم . ولكن الحقيقة المرة هى أننا نستخدم كل منتجات الحضارة الحديثة بوصفنا مستهلكين أو زبائن دائمين فى " **سوبر ماركت** " الآخرين . ونعتقد أننا بذلك متقدمون . ولكن الأمر الذى ينبغى ألاَّ يغيب عن الأذهان أن الحضارة القائمة إذا باعتنا منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وجوهرها القائم على العلم والإبداع والابتكار ، وكل المعانى التى لا تلمسها الأنامل . فعملية التحضُّر عملية منبعثة من الداخل أساساً ، وهذا يعنى أن هناك شيئاً ذاتياً أساسياً يجب أن يقود عملية التحضُّر . وعدم مشاركة المسلمين فى صنع الحضارة الحديثة يعنى أنهم قد تخلوا عن مسئوليتهم فى عمارة الأرض وتركوها لغيرهم ، وهى تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم .

٢ ـ اختزال الإسلام فى الشعائر :

واهتمامنا بالشكل الحضارى بعيداً عن الجوهر جعلنا أيضاً نختزل ديننا العظيم فى مجرد الشعائر الدينية المعروفة والاهتمام المفرط بالشكليات بعيداً عن جوهر الدين ومقاصـــده . وأصبح التدين الشكلي هو الأســـاس ولا يهم ما وراء ذلك . ألسنا نصلى ونصوم ونزكى ونحجُّ ؟ ألا يعنى ذلك أن الإسلام بخير ؟

إن الواقع المر يقول بغير ذلك تماماً . فالقضية ليست فى الشكل وإنما فى التحول الداخلى الذى ينبغى أن يحدث نتيجة لأداء هذه الشعائر ، والذى ينبغى أن يظهر فى صورة إيجابية فى سلوك المسلمين متمثلاً فى القيم الإسلامية الدافعة إلى التقدم والرقىّ وعلى رأسها العلم والعمل من أجل تحقيق الخير لكل الناس . وقد وضع القرآن الكريم أمامنا قانوناً ثابتاً لا يتغير فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(١).

وهذا يدل على أن تغيير أحوالنا لن يسقط علينا من السماء، وإنما يتحقق بأيدينا وبعقولنا وتفكيرنا .

وقد أدت هـــذه الظواهر السلبية فى سلوك المسلمين إلى إهمال دور العقل الإنسانى ، والاهتمـــام المفرط بالغيبيات التى

---

(١) سورة الرعد : ١١ .

استأثر الله وحده بعلمها . وانتشرت بين عامة المسلمين الكثير من الخرافات والأوهام التى لا أساس لها فى صحيح الدين أو العلم . وأهملنا الاهتمام بإعمار الدنيا التى نعيش فيها والتى خلقها الله لنا لنقوم بتعميرها بالعلم ونشر الخير فى أرجائها ، واعتقد الكثيرون منا أن الآخرين إذا فازوا بالدنيا فقد ادخر الله لنا الآخرة . فلماذا – إذن – نهتم بالدنيا وبالعلم وبالحضارة ؟ إن هذه أمور لا قيمة لها، ويكفى أننا نؤدى شعائرنا لنفوز بالآخرة .

وهـذا فهم خاطئ لجوهر الإسـلام الذى بيَّن لنا أن الله قد استخلف الإنسـان فى الأرض وكلَّفه بعمارتها . ولما كانت عمارتها لا تتم إلا بالعلم ، فقد زوَّد الله آدم بالعلم قبل أن يهبطه إلى الأرض ، ومنحـه الحرية حتى يكون قادراً على تحمُّل مسئوليته التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال .

٣ ـ ظواهر التشدد والتطرف :

وقد نتج عن هـذه التوجهات البعيدة عن مقاصد الدين الحقيقية سـبب آخر تجلَّى فى ظهور الكثير من أشكال التشـدد والتطرف فى فهم الدين وتعاليمـه . وأصبح التشدد فى أمور الدين ، وبصفة خاصـة فى الشكل والمظهر ، علامة واضحة على التدين .

وبناء على ذلك فإن الذين لا يتشددون فى أمور الدين يُعد تدينهم مشكوكاً فيه ، وتبع ذلك بطبيعة الحال تحول سلبى فى

السلوك ، حيث حلَّت الفظاظة والغلظة فى التعامل محل الرحمة التى هى السمة الأساسية للإسلام . وانتشرت تهم الكفر والتحلل من الدين ضد من يُعتقد أنهم متساهلون فى أمور الدين .

ونسى هؤلاء المتشددون والمشـــددون على أنفسهم وعلى الآخرين أن الإسلام دين يسر لا عسر وأن الله سبحانه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[1].

وأن الله وحده هو الذى سوف يفصل بين الناس يوم القيامة، كما نسى هؤلاء أيضاً أن الله سبحانه وتعالى – الذى وسعت رحمته كل شىء – قد فتح باب الأمل على مصراعيه أمام كل الناس فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٢) سورة الزمر : ٥٣ .

وغنى عن البيان أن نشير فى هذا الصدد إلى أن هذا التيار المتشدد كان وراء ظهور موجات الغلو والتطرف التى جلبت على الأمة الإسلامية عواقب وخيمة .

٤ ـ التشرذم وفقدان التضامن :

وقد كان لاهتمام المسلمين بالشكل على المستوى الدينى والحضارى أكثر من اهتمامهم بالجوهر أثر سلبى على العلاقات بين شعوب الأمة على جميع المستويات ، وبصفة خاصة على المستوى السياسى والاقتصادى . فالتشرذم قد أصبح هو السمة الغالبة على علاقات شعوب الأمة الإسلامية فيما بينها ، وبالتالى أصبح التضامن الإسلامى مجرد شعار نردده فى المناسبات ، ولكنه شعار يخلو من أى مضمون [١] . ويعبر ذلك بشكل واضح عن حال المنظمات الإسلامية التى تُعد انعكاساً لأوضاع الأمة وصورة لأحوالها . ويمكن للمرء أن يتعرف على ذلك عن طريق ذكر مثال واحد من بين أمثلة كثيرة ؛ فحجم التجارة البينية بين دول العالم الإسلامى لا يتجاوز نسبة (٨%) من حجم

---

(١) انظر موضوع : " **التضامن الغائب** " فى نهاية القسم الأول من هذا الكتاب .

تجارة هذه الدول مع بقية دول العالم . والتعاون فى بقية المجالات الأخرى ليس أسعد حظًا من ذلك .

ومن هنـــا فإنه ليس بالأمر المستغرب أن نرى العالم الإسلامى – الذى يشكِّل سكانه خُمس سكان العالم – قد أصبح مسرحًا مباحًا للصراعات المحلية والعالمية ، ومطمعًا للقوى الكبرى ، ولقمة سائغة فى فم أعداء الأمة . وأصبح المسلمون فى عالم اليوم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام .

ولا نريد أن نسترســل فى ذكر الأمثلة على ذلك . فهى معروفة للعامة والخاصة ، ولا نريد أيضًا أن نصيب النفوس بالإحباط واليأس ، وإنما نريد فقط أن نواجه أنفسنا بمشكلاتنا وعيوبنا وأخطائنا ، وبمعنى آخر نريد أن نمارس **النقد الذاتى** الذى يُعد أول خطوة على الطريق الصحيح .

ومما تقدم يتضح لنا أن هذه الأسباب وغيرها كثير قد أدت إلى هذه الأوضاع الحضــارية المتردية التى نعيشها فى عالمنا الإســلامى . ومن هنا فإننا إذا أردنا أن نلخص مشاكل أمتنا الإسلامية فى عالم اليوم فى عبارة واحــدة فيمكن القول بأن مشكلتنا الكبرى هى **مشكلة حضارية** بالدرجة الأولى .

* * *

الحلول المقترحة

فما السبيل إلى الخروج من هذه الأزمة الخانقة ؟

يقول خصوم الإسلام : إن هذا الدين هو سبب تخلف المسلمين ، ومادام المسلمون متمسكين بدينهم فلن تقوم لهم قائمة، ويقدم هؤلاء النصح للمسلمين بأن يفصلوا فصلاً تامًا بين الدين والحياة ويبعدوا الدين تمامًا عن التدخل فى أمور الدنيا ، ويتبعوا فى هذا الصدد النموذج الغربى فى تهميش الدين ، هذا النموذج الذى أخذ بيد الغرب إلى الأمام ، وجعله اليوم فى مقدمة دول العالم حضارةً ورقيًا .

وقد يكون الأخذ بالنموذج الغربى حتميًا فى حالة ما إذا لم يكن لدى المسلمين خيارات أخرى تستند إلى ما لديهم من تراث دينى وحضارى عريق .

وفى هذا المقام نود أن نؤكد أن الموقف الإسلامى من الحضارات الأخرى موقف واضح لا لبس فيه ؛ فالإسلام لا يمنع أتباعه من الاستفادة من تجارب الآخرين وعلومهم وخبراتهم . **[فالحكمة - كما جاء فى الحديث الشريف - ضالَّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها]** [1] . وليس هناك من حرج على

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

المسلمين فى الأخـــذ بكل ما هو مفيد لدى الآخرين . بل إن الفيلسوف العظيم ابن رشـــد قد جعل الاطلاع على ما لدى الآخرين واجبًا شـــرعيًا ، ولكنه أوصانا بأن تكون لنا فى ذلك نظرة نقدية تميز بين النافع والضار . وفى ذلك يقول :

" ننظر فى الذى قالوه من ذلك ، وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبَّهنا عليه وحذَّرنا منه وعذرناهم " (١) .

ولسنا نشك فى أن عقلاء الأمة يريدون الارتقاء بحضارتها ، ويريدون أن تكون الأمة مشاركة ومؤثرة فى الحضارة الإنسانية حتى لا يكون المسلمون مجرد مستقبلين أو مقلدين أو مستهلكين.

ولكن النوايا وحدها لا تصنع حضارة ، ولا تغير من الواقع شيئًا . ومن أجل ذلك فإننا فى عالمنا الإسلامى فى أشد الحاجة إلى ثقافة جديدة هى ثقافة التغيير التى تستطيع أن تحول النوايـــا والأمنيات إلى واقع ملموس .

---

(١) راجع كتاب فصل المقال لابن رشد فى كتاب : فلسفة ابن رشد ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨٢م ــ ص١٢ .

والملاحظ أن ثقافة الأمة فى الأعم الأغلب صارت ثقافة سكونية منذ عدة قرون ، تعتمد على الحفظ والتلقين وتشجع على التقليد وليس على الإبداع والابتكار .

والمطلوب بإلحاح هو ثقافة تحترم العقل وتمارس الفكر وتنمى شخصية الفرد وتحفزه إلى العمل المنتج والفكر المبدع .

ولم يكن ذلك بالأمر الغريب على الحضارة الإسلامية ؛ فقد عرفت هذه الحضارة هذا اللون من الثقافة الخلاقة التى أبرزت المواهب العلمية والأدبية والفلسفية وغيرها فى كل مجالات العلوم والمعارف ، وازدانت الحضارة الإسلامية بالأعلام الكبار الذين كان لهم عطاؤهم المتميز الذى أثرى الحياة الثقافية فى العالم الإسلامى . وكان التجديد هو السمة الغالبة فى الحضارة الإسلامية ، وتميزت الحياة الثقافية الإسلامية على مدى ما يقرب من ثمانية قرون بالحيوية والإبداع ، باستثناء بعض فترات شابتها عوامل الجمود والانغلاق .

ونحن إذ نتذكر ذلك اليوم فليس من غرضنا مجرد التغنى بالأمجاد أو اجترار ذكريات عزيزة علينا ، كما أنه ليس من غرضنا أيضًا أن نبكى على الأطلال ، فذلك كله شأن العاجزين. ولكن المقصود من الإشارة إلى ذلك كله هو استعادة الثقة بأنفسنا وبقدراتنا ، والاستفادة من دروس الماضى . فالذكرى – كما يقول القرآن الكريم – تنفع المؤمنين .

إننا فى حاجة ماسَّة إلى التزود بالعزيمة القوية والتسلح بالإرادة الحاسمة ، والتمسك بالأمل فى مستقبل مشرق فى غد أفضل ، والاقتناع بأننا نقف على أرض صلبة ، وأننا فى انطلاقتنا الحضارية الجديدة لا ننطلق من فراغ ، وإنما نعتمد على رصيد حضارى ضخم أثبت التاريخ أنه كان نموذجًا رائعًا قدم للإنسانية عطاءً حضاريًا بلا حدود . ولكن هذا يتطلب منا فى العصر الحاضر قراءة جديدة للإسلام لنعيد النظر فى فهمنا لهذا الدين الذى لا يتعرض فقط لظلم خصومه وإنما يعانى أيضًا من جهل أبنائه .

إن العيب فينا نحن المسلمين وليس فى الإسلام . ومن هنا كان رد المفكر الإســلامى المعروف مالك بن نبى على تهمة إرجاع تخلف المسلمين إلى الإسلام بقوله :

"إن التخلف الذى تعانيه الأمة الإسلامية اليوم ليس سببه الإسلام كما يُشاع ، وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخلِّيهم عنه لا لتمسُّكهم به كما يظن بعض الجاهلين".

وحقيقة الأمر أن الإســلام كان أول دين دعا إلى الحضارة وطالب باتخاذ كل الأســباب المؤدية إليها ، وجعل منها فريضة دينية وواجبًا إسلاميًا لا يجوز التهاون فيه ، ولا يقل شأنًا عن فرائض الإســلام الأخرى . ولكن الفهم القاصر للإسلام لدى

المسلمين جعل من الحضارة أمرًا هامشيًا . فنحن نقول دائمًا إن الإسلام عقيدة وشريعة ، وهذا حق . ولكن ذلك ليس كل الحقيقة الإسلامية . فالإسلام بالإضافة إلى ذلك أخلاق وحضارة . أما أنه أخلاق فإن ذلك ما جاء على لسان النبى ﷺ فى قوله :

[إنما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق] (١) .

أما أن الإسلام بالإضافة إلى ذلك حضارة فهذا يعتمد على أمر إلهى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٢) .

أى : طلب منكم عمارتها بالمعنى الشامل لهذا المفهوم ماديًا ومعنويًا ، وبالتعبير الحديث طلب منا صنع الحضارة فى الأرض . وهذا العنصر الذى يعنى أن الإسلام حضارة هو **الفريضة الغائبة** لدى المسلمين فى عالم اليوم . ومن هنا فإنهم إذا أرادوا أن تقوم لهم قائمة مرة أخرى ، وإذا أرادوا أن يسابقوا الآخرين فى الخيرات كما أوصاهم القرآن الكريم بذلك فعليهم تفعيل هذا العنصر الغائب دون إغلاق الأبواب أمام الاستفادة مما لدى الآخرين .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » .

(٢) سورة هود : ٦١ .

ومن الأمور البديهية أن الحضارة لا تقوم إلا بالعلم . والعلم فى الإسلام فريضـــة على كل مسلم ومسلمة - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف - [1] . ومن هنا تأخذ الحضارة فى الإسلام حكم العلم فتكون هى أيضًا فريضة ، لأن الطلب الإلهى بإعمار الأرض لن يتحقق إلا بالعلم . وقد فتح القرآن الكريم باب البحث العلمى أمام الجميع على مصراعيه ولم يضع حدودًا ولا سدودًا أمامهم فى هذا الصدد . ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] .

وهذا يعنى أن السماوات والأرض وما بينهما مجال للبحث والدراسة . وختام الآية المشار إليها فى غاية الأهمية لأنه يشير إلى أن أبواب البحث العلمى لن تُفتح إلا "**لقوم يتفكرون**"، أى : لهؤلاء الذين يستخدمون عقولهم ويجندون إمكاناتهم الفكرية للبحث والدراسة بصـــرف النظر عن معتقداتهم وأجناسهم ولغاتهم. والتفكير يُعد من القيم الحضارية الإســـلامية التى أكد

---

(١) رواه ابن ماجه عن أنس ﷺ .

(٢) سورة الجاثية : ١٣ .

عليها القرآن الكريم فى كثيرٍ من آياته ، لأنه الوظيفة الأساسية للعقل الإنسانى الذى يُعد أجلَّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان .

المسئولية الحضارية :

والإنسان – خليفة الله فى الأرض – هو صانع الحضارة . ومن هنا كان تكريم الله للإنسان وتمييزه بالعقل ، وتزويده بالعلم الذى به يستطيع أن يقوم بمهمة إعمار الكون ، وهذا يعنى أن عليه **مسئولية حضارية** . وهذه المسئولية الحضارية ذات أبعاد مختلفة وجوانب عديدة ، إذ تُعد بمثابة دائرة مركزها الإنسان ذاته ومحيطها كل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية وغير حية، الأمر الذى يبيِّن لنا مدى الشمول الذى تدور فيه هذه المسئولية الحضارية .

وقد بيَّن لنا النبى ﷺ جوانب أساسية مهمة فيما نطلق عليه " **المسئولية الحضارية** " للإنسان بقوله :

[لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عنـــد ربه حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به] (١) .

---

(١) رواه الترمذى .

ويلحظ المرء فى هذا الحديث الشريف اشتماله على عدة عناصر أساسية لمسئولية الإنسان فى الدنيا والتى سيقدم عنها كشف حساب يوم القيامة أمام الله سبحانه وتعالى. وهذه العناصر هى: الوقت والعمل (المعبر عنه بالشباب الذى يعنى القدرة على العمل بصفة عامة) والمال والعلم .

ولا شك فى أن هذه العناصر تمثل عوامل مهمة فى العملية الحضارية ؛ ومن هنا يحق لنا أن نصف هذه المسئولية بأنها مسئولية حضارية .

وتتسع المسئولية الحضارية للإنسان لتشمل كذلك مسئولية الإنسان عن وسائل الإدراك الحسية والعقلية والتى بدونها لا يستطيع الإنسان أن يبنى حضارة بأى حال من الأحوال ؛ ومن أجل ذلك يؤكد القرآن الكريم هذه المسئولية فى وضوح تام بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾[1].

وقد كان مبدأ الاجتهاد فى الإسلام من المبادئ التى فتحت الباب أمام العقل ليصول ويجول فى مجال استنباط الأحكام

---

(١) سورة الإسراء : ٣٦ .

الشرعية ، وهو الآلية التى أقرها الإسلام للتجديد المتواصل فى الحياة الإسلامية .

وإذا كان الإســـلام قد أجاز للعقل هذا الحق فى مجال الأحكام الشرعية ، فمن باب أولى يكون ذلك أمرًا حتميًا فى مجال الأمور الدنيوية . والنبى ﷺ نفسه هو القائل :

[أنتم أعلم بأمور دنياكم] (١) . والاجتهاد فى حقيقته دعوة إلى الإبداع فى كل مجالات العلوم والفنون والصنائع ؛ ومن هنا وصفه المفكر الإسلامى الراحل محمد إقبال بأنه مبدأ الحركة فى الإسلام .

ويمكن القول بناء على كل ما ســبق : إن الحضارة فى التصور الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض ماديًا ومعنويًا ، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض ، وبذلك أيضًا يكون الإنسان فى صلة مستمرة بالله خالق الكون ، وهذه الصلة كفيلة بأن تصحح له دائمًا مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق .

وإذا كان الله قد وعد المؤمنين فى القرآن الكريم بالتمكين لهم فى الأرض فى قوله تعالى :

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [1] ..

فإن ذلك لن يتحقق إلا بشرطين أساسيين اشتملت عليهما هذه الآية الكريمة هما :الإيمان ، والعمل الصالح . فالإيمان هو الأساس ، والعمل الصالح هو البناء . ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء . ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس . وقد ورد فى المأثورات الإسلامية فى هذا الصدد :

[ليس الإيمان بالتمنِّى ولكنْ ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل] [2] ..

فهناك – إذن – صلة وثيقة بين الإيمان والعمل .

وقد اختزل المسلمون العمل الصالح فى أداء الشعائر الدينية . ولكن العمل الصالح – فى حقيقة الأمر – يشمل كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة ، دينيًا كان هذا العمل

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) روح المعانى : ١٥٢/٥ .

أم دنيويًا ، مادام كان هذا العمل نافعًا للناس ، ومحققًا لمصلحة المجتمع ، ومساعدًا على البناء الحضارى المطلوب .

إن العمل الصالح - إذن - يشمل خيرى الدنيا والآخرة . وهذا يعنى أن الإسلام دين للحياة بجميع أبعادها لا فرق فى ذلك بين أمر دينى وأمر دنيوى ؛ فهذه التفرقة غريبة عن طبيعة الإســـلام . ومن هنا يمكن القول بأن العمل الصالح يعنى تحقيق القيم الدافعة إلى تقدم الإنســـان ورقيه ، ونهضة المجتمع وازدهاره. وهذا معناه تحقيق القيم المؤدية إلى بناء الحضارة ، وإذا تم ذلك تحققت بالتالى الوعود الإلهية الثلاثة المشار إليها فى الآية الكريمة .

والقرآن الكريم يبين لنا فى وضـــوح تام أن التمكين فى الأرض يُعد بمثابة الضمان لإقامة فرائض الإسلام كلها . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة الحج : ٤١ .

كلمة ختامية :

وفى ختام حديثنا نود أن نؤكد مرة أخرى أن المسلمين فى عالم اليوم فى مفترق طرق . والعولمة التى تجتاح العالم اليوم لن تعبأ كثيرًا بالمستضعفين . وعالم اليوم لا يحترم إلا الأقوياء، والقوة ليست فى القوة المادية فقط ، أو الوفرة فى الثروة ، وإنما القوة التى يحترمها عالم اليوم هى قوة العلم ، قوة الحضارة . وليس أمام المسلمين خيار آخـــر إلا خيار العلم والحضارة إذا أرادوا أن يكون لهم مكان فى خريطة العالم المتحضر . ومن هنا نؤكد أن الحضارة اليوم بالنسبة للمسلمين قد أصبحت فرض عين على كل مسلم ومسلمة كما هو الحال بالنسبة للعلم . وهذا يعنى أنها لم تعد ترفًا وإنما أصبحت قضية مصـــير ، وعلى المسلمين أن يدركوا ذلك جيـــدًا وإلا فإن الزمن سيتجاوزهم ويطوى صفحتهم .

ولعله قد اتضح لنا من خلال ما عرضناه هنا فى خطوط عريضة أن الحضارة فى الإســـلام تُعد واجبًا حتميًا وفريضة دينية لا يجـــوز التهاون فيها . ونأمل ألا يكون حديثنا مجرد صرخة فى وادٍ أو نفخة فى رماد ، فالأمر جد لا هزل فيه .

نسأل الله أن يهدينا جميعًا إلى سبيل الرشاد ..

* * *

(٢)
الإســـلام والعـــلم

لا يزال الحـــديث يتردد كثيرًا فى داخل العالم الإسلامى وفى خارجه عن علاقة الإسلام بالعلم . ويعتقد بعض المشتغلين بالدراسات الإســـلامية فى الغرب أن الإسلام يشكل عقبة فى طريق العلم والتقدم العلمى . ويتخذ هذا البعض من واقع التخلف العلمى فى العالم الإســـلامى مبررًا لجعل الإسلام سببًا لهذا التخلف . وهذا هو أسهل الطرق لاتهام الإسلام بذلك .

وقد سبق أن أكد هـــذا الزعم منذ فترة طويلة المستشرق الفرنسى المعروف إرنست رينان فى المناظرة التى تمت بينه وبين جمال الدين الأفغانى . ومن بين ما قال فى هـــذا الصدد : "لقد كان الإسلام ضارًا بالنسبة للعقل الإنسانى ، وأغلق العقول عن التنوير ، واضطهد الفكر الحر وجعل من البلدان التى فتحها مجالاً مغلقًا أمام الثقافة العقلانية للعقل " ، وأضاف رينان :

" **إن ما يميز المسلم فى الواقع بشكل جوهرى هو كراهيته للعلم والاقتناع بأن البحث فيه باطل ولا جدوى منه وكفر** " [١].

---

(١) راجع : « الإسلام والعلم » – مناظرة رينان والأفغانى – ترجمة ودراسة مجدى عبد الحافظ ، ص٤٧ مع بعض التصرف – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥م .

وهـــذا قليل من كثير مما قاله فى هذا الصدد . ولم يكـــن رينان أول من قال ذلك ، ولن يكون بالقطع آخرهم . فما حقيقة هذا الزعم؟ وهل هناك بالفعل مشكلة حقيقية بين الإسلام والعلم؟

لقد دعانى الأخ الفاضل الدكتور / جابر عصفور للمشاركة فى ندوة لمنتدى الحوار بمكتبة الإسكندرية حول موضوع الإسلام والعلم[1] ، وبالتحديد حول كتاب صدر بهذا العنوان لأحد العلماء الباكستانيين المتخصصين فى الطبيعة النووية . وقد كانت هذه الندوة هى الدافع المباشر لكتابة هذا المقال . وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن هذا الكتاب ، وإنما نريد أن نقصر حديثنا على علاقة الإسلام بالعلم بصفة عامة .

وأود فى البداية أن أزعم أن الخصومة بين الإسلام والعلم مفتعلة من أساسها ، وليس لها أى ســـند من مصادر الإسلام الأساسية : القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة . ومن هنا فإن الإسلام فى حقيقة الأمر ليس لديه مشكلة على الإطلاق مع العلم . فالإســـلام كدين وتعاليم يشجع العلم والعلماء إلى أبعد مدى.

---

(١) كان ذلك فى ٨ يولية ٢٠٠٦م .

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى أن بداية الوحى القرآنى على محمد ﷺ كانت منصبة على الأمر بالقراءة والإشادة بالعلم وبالقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم ، وبالإنسان حامل هذا العلم . والمشكلة هى فى عقـول هؤلاء الذين يروِّجون لهذه المزاعم بنظرة سطحية انطلاقًا من التخلف العلمى الراهن لدى المسلمين.

والســؤال الذى يمكن أن يطرح فى هذا الصدد هو : هل التزام المسلمين بالإسلام هو الذى يعوق تقدمهم العلمى ؟ وإذا كان الأمر كذلك فأى إسلام هذا الذى يجذب المسلمين إلى الوراء فى الوقت الذى يسـرع فيه الآخرون الخطى ؟ وهل يطبِّق المسلمون بالفعل مثاليات الإسلام، وبالتالى تحجبهم هذه المثاليات عن أى تقدم علمى ؟

لننظر فى الأمر بطريقة موضوعية : إن ما يقرب من نصف المسلمين فى العالم أميون لا يقرءون ولا يكتبون . فهل يتفق هذا مع مثاليات الإسلام ؟ لقد كان النبى يفرج عن الأسير من غزوة بدر إذا علَّم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة. ومن ناحية أخرى فإن الإسلام دين يقدس العلم ويجعله فريضة على كل مسلم ومسـلمة ، كما يجعل مداد العلماء مساويًا لدماء الشهداء . كما يقدس العمل ويجعل الإيمان الصـادق مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالعمل الصالح ، كما يتضح ذلك فى عشرات

الآيات فى القرآن الكريم . فهل المسلمون ملتزمون بهذه المثاليات ولذلك أدت بهم إلى التخلف العلمى ؟ إن الأمر على العكس من ذلك تمامًا .

إن الإســـلام ليس عدوًا للعلم وإنما هو عدو لكل تخلف علمى. وحل مشكلة التخلف العلمى لا تكون إلا بالبحث العلمى والتقدم العلمى وتطوير الحياة بالعلم ومنجزاته .

ويذهب البعض من أصحاب النوايا الحسنة إلى أن الحل يمكن أن يتحقق من خلال جهـــود البحث فى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم من ناحية ، وجهود أسلمة العلوم من ناحية أخرى.

وأعتقد أن هـــذه الجهود - رغم حسن النوايا - لن تفيد الإسلام والمسلمين فى شىء ولن تخرج المسلمين من تخلفهم العلمى وتراجعهم الحضارى ، ولن تدفع بعجلة البحث العلمى إلى الأمام .

إنها جهود تُعد فى عصرنا الحاضر من قبيل الترف الـــذى لا ضرورة له فى الظروف الراهنة لعالمنا الإسلامى .

إن الأمر الذى يؤســـف له أن يخرج من بين صفوف المسلمين من يهاجم العلم والعلماء والبحث العلمى وينكر الحقائق العلمية ويرفض كروية الأرض وغيرها من حقائق توصّل إليها العلم معتقدًا أنه بذلك يدافع عن الإسلام . والواقع أنه يسىء إلى

الإسلام أبلغ إساءة ويعطى لخصوم الإسلام المبرر للزعم بعداء الإسلام للعلم والعلماء . وهذا شأن الأصـــدقاء الجهال الذين يؤذون الإسلام بجهلهم . **والأذيَّة من الصديق هى أشد أذيَّةً من العدو** ، كما يشير ابن رشد إلى ذلك أيضًا فى سياق مماثل لما نحن بصدده الآن [1] .

وهؤلاء الأصدقاء الجهال يشكلون كارثة بالنسبة للإسلام ؛ فهم من ناحية لا يفهمون ، وبدلاً من أن يستروا جهلهم يقومون بإعلانه على الملأ . وليتهم يكتفـــون بذلك ولكنهم يعلنون أن ما يقولونه هو الإسلام . والإسلام برىء مما يقولون .

وإذا كانت هذه الأفهام الفاسدة تقف دائمًا عقبة فى طريق العلم والبحث العلمى فإنها بذلك تعطى للآخرين ذريعة لاتهام الإسلام كدين بأنه مناقض للعلم ومضاد للبحث العلمى . وقد حدث ذلك بالفعل فى الماضى ويحدث فى الحاضر أيضًا .

ومنذ أكثر من عشرين عامًا أطلعنى الشيخ / محمد الغزالى – رحمه الله – وهو فى غاية الأسف والحزن – على كتاب كان قد صدر فى بعض الدول العربية يزعم فيه مؤلفه – المحسوب على العلم الدينى – أنه أتى فى هذا الكتاب بثمانية وأربعين دليلاً من القرآن على أن الأرض لا تدور .

---

(١) راجع : فصل المقال لابن رشد (فى مجموع بعنوان : فلسفة ابن رشد) ص٣٨ ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨٢م .

والذى يقرأ هـذا الكتاب وأمثاله من الكتب التى تنشر الخرافات بين الناس يعذر رينان وغيره من المستشرقين الذين يزعمون أن الإسلام عدو للعلم وللبحث العلمى . ولا تزال مثل هذه الأفكار الخاطئة تُنشر على الناس باسم الإسلام ، المظلوم من أتباعه قبل خصومه .

وحقيقة الأمر أن الإسلام - الذى حرر العقل من كل أشكال التقليد - قد أفسح المجال أمام العلم والبحث العلمى إلى أبعد الحدود . وهناك العديد من الأسانيد القرآنية فى هذا الصدد . ويكفى أن نشير إلى الآية القرآنية التالية :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

فهذه الآية تبين لنا أن السماء والأرض وما بينهما مسخَّرات للإنسـان لتكون مجالاً خصبًا للبحث والنظر لكل من لديه الاستعداد للتفكير والرغبة فى البحث بصرف النظر عن جنسه أو معتقده أو لونه أو لغته ، فالخطاب موجَّه " لقوم يتفكرون " بصفة عامة . والتفكير وظيفة العقل الإنسانى ، والكون جميعه هو صحيفة هذا العقل التى ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه - كما يقول الشيخ محمد عبده أيضًا فى كتابه عن العلم والمدنية .

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

إن الإسلام لم يضع حدودًا ولا قيودًا أمام البحث العلمى . والحدود والقيود والعقبات من صنع " الأصدقاء الجهال " . الذين هم أضر بالإسلام من الخصوم العقلاء ، وصنيعهم مع الإسلام مثل صنيع الدبة التى قتلت صاحبها بحجر كبير ألقته على وجهه بنية إبعاد ذبابة تزعجه فى نومه .

وهؤلاء هم سبب بلاء الأمة الإسلامية فى العصر الحاضر بما يصـــدر عنهم من فتـــاوى تسىء إلى الدين أبلغ إســـاءة . وما يشـــهده عالمنا المعاصر من اتهامات للإسلام بالإرهاب والدموية وعداء العلم وكراهية التقدم العلمى يرجع إلى هؤلاء .

ولا خلاص للأمة الإسلامية من تخلفها إلا باستقلال الفكر وحرية البحث والاجتهاد .

وقد اتضح لنا من الآية المشار إليها أن العلم قسمة مشتركة بين الناس جميعًا . ومن هنا فإن العلوم الكونية ليس فيها ما يمكن أن نطلق عليه علمـــاً إسلاميًا أو غير إسلامى . فالعلم لا وطن له ولا جنسية ولا ديانة . وعلم الكيمياء مثلاً لدى المسلمين هو نفسه لدى المسيحيين أو اليهود أو البوذيين .

ومن نافلة القول أن نؤكد هنا أن كل ما يتعلق بالدين يُعد من الخصوصيات لهذه الحضـــارة أو تلك ، أما ما هو قسمة مشتركة بين كل بنى البشر فلا فرق على الإطلاق . ومن هنا

فإن ما يسمى بأسلمة العلوم وما يُبذل فى ذلك من جهود كبيرة وما يُنفق فى سبيلها من أموال طائلة يُعد جهدًا ضائعًا لا يفيد الإسلام والمسلمين فى شىء . وحبذا لو تم توجيه كل هذه الجهود والأموال إلى مجالات البحث العلمى المختلفة بهدف إخراج الأمة الإسلامية من تخلفها العلمى وتراجعها الحضارى . والأمر المؤسف أن العالم الإسلامى لا ينفق على البحث العلمى إلا أقل القليل ، وبنسبة تنقص عن (١%) من الدخل القومى .

إن العالم يتقدم بسرعة فائقة ونحن نراوح مكاننا ولم نتقدم خطوة واحدة تزيل عنا عار التخلف العلمى والتراجع الحضارى. وأعتقد أن إصلاح التعليم فى عالمنا الإسلامى وجعله تعليمًا ينمى فى النشء القدرة على التفكير ويدربه على النقد ؛ هو بداية الطريق الصحيح نحو الخروج من الأزمة الخانقة التى تحيط بالأمة الإسلامية .

ومن الحقائق التى لا يجوز تجاهلها أن العلم فى الإسلام ليس مقصورًا ــ كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ــ على العلم الدينى فقط ، فهذا جانب واحد من جوانب متعددة . فالعلم الدينى ــ بنص القرآن ــ تختص به طائفة معينة مصداقًا لقوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ [1] .

أما بقية فئات الأمة فإن على كل فئة منها أن تختص بمجال من مجالات العلم المختلفة . وهذه الجهود جميعها تتكامل فى النهاية ولا تتناقض . وعلى المسلمين أن يبذلوا أقصى الجهد للحصول على العلم ، حتى ولو كان فى الصين كما جاء فى بعض الأحاديث المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام :

[اطلبوا العلم ولو بالصين] [2] ..

أى : حتى ولو كان فى أبعد مكان فى الدنيا ، أو حتى ولو كان فى يد من لا يدينون بدينكم . فالعلم لا وطن له ولا دين . ومن البديهى أن العلم الذى نطلبه ولو فى الصين لا صلة له بالعلم الدينى ، وإنما هو العلم بجميع أبعاده ، إنه العلم الذى يخدم الحياة الدنيا التى نعيش فيها . والحكمة ضَالَّةُ المؤمن أَنَّى وجدها أخذها ــ كما جاء فى الحديث النبوى الشريف ــ .

وقد بين لنا القــرآن الكريم أن العلماء (بالمعنى الواسع للكلمة) هم أخشى الناس لله ، لأنهم الذين يستطيعون إدراك

---

(١) سورة التوبة : ١٢٢ .

(٢) مسند البزار .

سنن الله فى الكون ويدركون عظمة الخلق وجلال الخالق . ومن هنا اعتبر النبى عليه الصلاة والسلام مداد العلماء مساويًا لدماء الشهداء ــ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ــ .

إن المشكلة - إذن - ليست بين الإسلام والعلم ، وإنما هى مشكلة فئة من الجامدين والجاهلين تريد أن تفسر الدين على هواهــا ، وتريد أن ترغم الدين على الأخذ برؤاها المتخلفة وتصوراتها المتحجرة . ولابد من التحرر من أسر هذه العقليات والنظر إلى الأمور بنظرة استقلالية بعيدة عن أى تقليد ؛ " **فلا خلاص إلا فى الاستقلال** " ــ كما كان يقول الإمام الغزالى ــ .

إننا فى حاجة إلى عقليات متحررة من الأوهام والخرافات والدجل والشعوذات ، ومتحررة من الجهل والتقليد . فالآفة التى تشــد المسلمين إلى التخلف والجهل ــ كما يقول الشيخ محمد عبده ــ تتمثل فى التقليد الأعمى وفى مصادر التثقيف المتخلفة [1] .

إننا فى أشد الحاجة إلى العقلية النقدية التى تزن كل شىء بميزان العقل قبل أن تسلِّم به ، ويحضرنى فى هذا المقام العبارة التى ختم بها الإمــام الغزالى كتابه (ميزان العمل) حيث يقول :

---

(١) راجع : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ــ تحقيق د. محمد عمارة . ج٣ فى مواضع مختلفة ــ بيروت ١٩٨٠م .

"ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشككك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب (أى: للبحث) فناهيك به نفعًا. فالشكوك هى الموصلة إلى الحقائق. فمن لم يشكّ لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال" .

ومن المعلوم أن البحث العلمى فى حاجة إلى مثل هذه الشكوك ، لأنه لا يجوز أن يسلِّم الباحث بشىء إلا لما تثبته التجارب ، وتقره القوانين العلمية بأسانيد قوية وبراهين قاطعة .

ونود فى هذا المقام أن نشـــير إلى أحد مشايخ الأزهر السابقين الذى كان يتمتع بعقلية متفتحة وشغف بالعلم والبحث العلمى ، وهو الشيخ حسن العطار أستاذ رفاعة الطهطاوى الذى أرشده عند سفره إلى فرنسا إلى استيعاب كل ما يمكن استيعابه من آثار الحضارة الفرنسية ، وأشار عليه بتدوين كل ما يشاهده أو يعرفه أو يسمع عنه ، فكانت نتيجة هذه التوجيهات الحكيمة أن ألف الطهطاوى كتابه " تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ".

لقد كان الشيخ حسن العطار شغوفًا بالاطلاع على كل جديد فى مجال البحث العلمى . وكان معجبًا بالحضارة الفرنسية داعيًا إلى الاستفادة من منجزاتها ، وقد تعرَّف على بعض العلماء الفرنسيين واطلع على ما لديهم من آلات فلكية وهندسية ومراجع علمية فى الرياضيات وغيرها ، ولم يعتبر ذلك رجسًا من عمل

الشيطان . وكانت له إسهامات فى الطب والجراحة والتشريح والفلك . وكان شغوفًا بالتطبيق العملى للمعارف التى تعلَّمها نظريًا . وكان الشيخ فى الوقت نفسه عالمًا فذًا فى علوم الدين والأدب والعلـوم العقلية . وقد عيَّنه محمد على باشا شيخًا للأزهر عام ١٢٤٦هـ لما يتمتع به من علم غزير وثقافة عميقة وأفق واسع .

لقد أشرنا فى البحث السابق إلى أن مشكلة عالمنا الإسلامى مشكلة حضارية بالدرجة الأولى ، ولن يكون هناك حلول فاعلة لهذه المشكلة إلا بالعـلم بكل جوانبه . فالذى يملك العلم فى عالمنا المعاصر يملك القوة ، ومن يملك القوة يحظى بالاحترام . وهذا يتطلب صحوة حضـارية واعية وليس صحوة دروشة فارغة وتدين شكلى لا روح فيه ولا حياة .

وهذا أمل نرجو أن يتحول إلى واقع ملموس فى مستقبل قريب إن شاء الله .

* * *

(٣)

ماليزيا والمنهج الحضارى الإسلامى

لقد أتيحت لى فى شهر يونية ٢٠٠٦م فرصة التعرف على القفزة الحضارية التى قطعتها ماليزيا فى مختلف الجوانب ، وتعرفت عن قرب على ملامح " المنهج الحضارى الإسلامى " الذى تتبناه ماليزيا للتقدم والارتقاء . وهو منهج يركز ــ كما هو واضح ــ على الجانب الحضارى فى الإسلام ، هذا الجانب الذى يُعد فى حقيقة الأمر الفريضة الغائبة لدى غالبية المسلمين فى عالم اليوم .

وقد خطت ماليزيا خطــوات موفقة فى مجال التنمية الاقتصادية . ولكنها فى الوقت نفسه تريد الحفاظ على هويتها الدينية وثقافتها الإسلامية .

وبتطبيق هذا المنهج تطمح ماليزيا إلى الخروج من دائرة الدول النامية واللحاق بركب الدول المتقدمة . وفى سعيها لبلوغ هذا الهدف تقوم بحملة واسعة النطاق فى كل أرجاء ماليزيا وعلى جميع المستويات لشرح هذا المنهج وتوضيح أهدافه وبيان فوائده التى تعود بالخير على جميع طوائف الشعب بمختلف أعراقه وأديانه .

وقد أطلقت ماليزيا مبادرة " **المنهج الحضارى الإسلامى** " لتواجه تيارات التعصب والتشدد والفهم القاصر للإسلام الذى يعوق تقدم الأمة ويحول دون الأخذ بمعطيات العصر وعلومه وتقنياته . وتؤكد هذه المبادرة أن الإسلام دين متجدد وعصرى ، وأن الجمود ينبع من نظرة المسلمين إليه وتفسيرهم لتعاليمه تفسيرًا قاصرًا . وهذا أمر يجب إعادة النظر فيه . فالإسلام يدعو إلى إعمـــال العقل ويحث على التفكير والاجتهاد ، والمسلمون مطالبون بإحياء هذه المبادئ وتفعيل هذه القيم الإسلامية الدافعة إلى تقدم الأمة إذا أرادوا تطوير مجتمعاتهم وعدم التخلف عن مواكبة العصر .

وتتلخص مبادئ هذا المنهج الحضارى الإسلامى فى البنود العشرة التالية :

١ ــ الإيمان وتقوى الله .

٢ ــ عدالة الحكومة وأمانتها .

٣ ــ حرية الشعب .

٤ ــ التمكن من العلوم والمعارف .

٥ ــ التوازن والشمول فى النهضة الاقتصادية .

٦ ــ النمو الاقتصادى والرفاه المعيشى .

٧ ــ حماية حقوق الأقليات والمرأة .

٨ ــ غرس القيم والأخلاق .

٩ ــ الحفاظ على البيئة .

١٠ــ تعزيز القوة الدفاعية للوطن .

والبند الأول فى هذا المشروع وهو الإيمان بالله لم يوضع اعتباطًا أو بقصد التجمل وإرضاء المشاعر الدينية لدى مسلمى ماليزيا الذين يشكلون نسبة (٦٠%) تقريبًا من تعداد السكان فى مجتمع متعدد الأعراق والديانات ، وإنما قُصد بجعل الإيمان بالله أول هذه المبادئ أن يكون الدين هو الأساس الذى تنبنى عليه بقية المبادئ . وإذا كان الأساس سليمًا فإن ذلك يكون بمثابة ضمانة أكيدة وركيزة راسخة تنطلق منها بقية المبادئ وتطبيقاتها.

وقد أدركت ماليزيا أن الفهم الصحيح للإسلام له دور بالغ الأهمية وعميق الأثر فى توجيه سلوك الناس التوجيه الصحيح . وفى المقابل فإن الفهم العقيم للإسلام يشكل عقبة كبرى فى سبيل أى تقدم للمجتمع . ولا شك فى أن الإسلام بتعاليمه السمحة دين يشتمل على كل القيم الحضـــارية التى من شأنها أن ترتقى بالمجتمع وتعلى من شأن أفراده وتحمى تعدديته الدينية والعرقية وتحافظ على التماسك بين جميع فئات الأمة من أجل تحقيق الآمال المرجوة للمجتمع بأسره .

وبالإضافة إلى تأكيد دور الدين وأهميته فى تقدم المجتمع يشتمل المنهج المذكور على مجموعة من القيم الأساسية الدافعة

إلى النهوض بالأمة والارتقاء بها وكلها قيم إسلامية وإنسانية فى الوقت نفسه .

وأهم هذه القيم: الحرية والعدالة والأمانة والعلم والمعرفة ، وحقوق المرأة ، وحقوق الأقليات الدينية والعرقية ، والحفاظ على البيئة ، وضمان مستوى معيشى معقول للإنسان ليشعر بآدميته وكرامته ، وحماية أمن الوطن والمواطنين ، وإحاطة ذلك كله بسياج من القيم الأخلاقية .

ويمكن القول فى إيجاز شديد بأن هذا المنهج يهدف إلى تحقيق التنمية الشاملة فى المجتمع . وفى هذا الإطار يركز على بناء الإنسان بناءً سليمًا ؛ فالإنسان هو عماد أى تنمية وهو صانع الحضارة وهو غايتها أيضًا .

ومن هنا يأتى الاهتمام بضمان كل ما يوفر له السعادة فى دنياه وأخراه . والفهم الصحيح للدين من شأنه أن يوفر المناخ المناسب لتحقيق كل هذه الطموحات .

والمنهج الحضارى الإسلامى يعتمد فى تطبيقه على تحقيق فهم مستنير للدين يواكب متطلبات العصر . ومن هنا يركز على أن الدين دعوة إلى التعمير والبناء الحضارى استجابة للأمر الإلهى بإعمار الأرض وصنع الحضارة فيها .

إن الدين حياة متدفقة بالخير، عامرة بالأمن ، وليس دروشة فارغة أو شكليات لا روح فيها ولا حياة . والمتأمل فى بنود هذا المنهج الحضارى الإسلامى يتضح له مدى الارتباط الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح ، وبين الدين والدنيا ، وبين هذه الحياة التى نعيشها والحياة الأخرى المستقبلية .

إن الإنسان فى هذا المنهج يُعد حجر الزاوية . فالمنهج بكل بنوده يسعى إلى الارتقاء بالإنسان ــ أشرف مخلوقات الله وخليفته فى الأرض ــ والذى كلَّفه الله بعمارة الأرض ونشر الأمن والسلام والخير فى كل أرجائها . إن المطلوب – إذن – هو أن يتجه الجميع للعمل بقلوب عامرة بالإيمان بعيدًا عن الشكليات التى لا أثر لها ولا تأثير ، وبعيدًا عن كل شكل من أشكال التشدد أو التطرف أو الغلو فى الدين ، وفى الوقت نفسه تصبح هذه القلوب عامرة بحب الناس وحب الحياة وحب الخير لكل البشر .

ونحن – إذ نحيِّى هذا التوجُّه الماليزى فى إحيائه للفريضة الغائبة لدى المسلمين وهى البناء الحضارى – فإننا ندعو لهذه الدولة الفتية بالتوفيق والنجاح فى تحقيق آمال شعبها حتى تكون نموذجًا يُحتذى به لأمتها الإسلامية .

* * *

(٤)

تأملات فى قضية الإعجاز العلمى للقـرآن الكريـــم

لقـــد ازداد الاهتمام فى الفترة الأخيرة بموضوع الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم بشكل غير مسبوق ، وتشكلت من أجل ذلك لجان ومراكز وهيئات على مستويات عديدة فى عالمنا الإسلامى . وتقوم هذه الجهات بين حين وآخر بعقد مؤتمرات وندوات لمناقشة هذا الموضوع والدعوة إليه .

وقبل الدخول فى تفاصيل الحديث عن هذا الموضوع أود أن أشير أولاً إلى أمرين مهمين :

أولاً : أتفق تمام الاتفاق مع الإمام الأكبر الراحل الشيخ / محمود شلتوت فى أنه لا يجوز أن نفسر القرآن الكريم بنظريات العلم المختلفة ، لأن ذلك - كما يقول بحق - :

" يعرِّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الأخير .. فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرَّضناه

للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفًا حرجًا فى الدفاع عنه " [1] .

ومن أجل ذلك ينبغى أن ننأى بالقرآن الكريم عن الوقوع فى هذا المنزلق الخطير .

ثانيًا : أما حقائق العلم المستقرة التى لم يعد فيها أى مجال للشك أو الأخذ والرد فليس هناك ما يمنع من الإشارة إلى ما يكون قد ورد بشأنها إجمالاً فى القرآن الكريم على سبيل التصريح أو التلميح ، لأن ذلك قد يساعد على تثبيت إيمان المؤمنين ويزيدهم يقينًا من ناحية ، ويلفت نظر غير المؤمنين لمزيد من التدبر والتأمل فى هذا الأمر من ناحية أخرى . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بصفة عامة فى قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [2] .

وأذكر أننى قد دُعيت عام ١٩٩٣م لإلقاء محاضرة فى الأكاديمية الكاثوليكية بمدينة زيوريخ بسويسرا . وبعد أن انتهت

---

(١) تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت ص ١٣، ١٤ – دار الشروق ١٩٧٩م .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

المحاضرة والحوار الذى دار حولها جاءنى أحد الحاضرين وسألنى : كيف عرف محمد ﷺ مراحل تطور الجنين فى بطن أمه بهذه الدقة التى وردت فى القرآن الكريم مع أن العلم لم يتوصل إلى هذه الحقيقة إلا فى العصر الحديث ؟ وكان ردى عليه بسيطًا يتلخص فى أن ذلك يعنى أن هذا القرآن ليس من عند محمد ﷺ الذى كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، وإنما هو وحى من عند الله سبحانه وتعالى .

ومن هنا فإننا من حيث المبدأ لسنا ضد هذا التوجه المتنامى فى البحث عن أوجه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وإبرازها للناس ، ولكننا فى الوقت نفسه لسنا من أنصار فتح هذا الباب على مصراعيه والمبالغة فيه إلى حد التعسف فى التفسير . ولعل تأييدنا لهذا التيار ، وإن كان فيه شىء من التحفظ يرجع إلى أنه بدلاً من أن نترك شبابنا نهبًا لتيارات التطرف أو التعصب أو الإرهاب فإنه من المفيد أن نشغله بقضايا علمية ونشجعه على الاهتمام بالعلم وقضاياه وموضوعاته من خلال الكشف عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم .

وإذا كان من الملحوظ أن الحديث فى الأمور الدينية يشد انتباه شبابنا فأولى بنا أن نتجاوب مع هذه الرغبة من خلال تعريفه بأن الإسلام ليس مجرد شعائر أو طقوس وإنما هو علم

وحضارة ، وبذلك يمكن أن نحميه من الوقوع فريسة فى يد التيارات التى تحاول أن تلغى عقله وتشلّ تفكيره وتخدِّر وعيه بمقولات زائفة لا صلة لها بصحيح الدين . ومن ناحية أخرى نساعد على نشر الثقافة العلمية بين الشباب من خلال الثقافة الدينية .

ولكن الأمر الذى ينبغى أن نلفت النظر إليه فى هذا المقام هو أن هناك كثيرين من المثقفين من المسلمين ومن غير المسلمين على السواء يشيرون إلى نقطة مهمة فى هذا الصدد تتلخص فى أنه إذا كان الأمر كذلك وهو أن القرآن قد سبق كل الإنجازات العلمية الحديثة ونبَّه إلى حقائق العلم وكشف عن القوانين التى تحكم هذا الكون فلماذا لم ينتبه إليها المسلمون ويحوزوا قصب السبق باكتشافها قبل أن ينتبه إليها الآخرون ؟

لماذا انتظر المسلمون قروناً طويلة حتى يكتشف الآخرون حقائق العلم ــ التى دفعت إلى هذا التطور العلمى الهائل الذى غيَّر وجه الحياة على الأرض ــ ثم يأتى المسلمون الآن ويقولون إن كل ذلك مقرر فى كتابنا المقدس ؟

أعتقد أنه قد آن الأوان لأن تكون لدى المسلمين مبادرات خلاقة فى هذا الصدد . والسؤال هو : لماذا لا يكرِّس الباحثون عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ــ فى ضوء مكتسبات

العلم الحديث ــ جهودهم على دراسة القرآن الكريم دراسة علمية جديدة ، وينطلقون من خلال ذلك إلى اكتشاف كل جديد قبل أن يكتشفه غيرهم حتى لا يكونوا دائمًا عالة على الآخرين .

إن الأمر الذى ينبغى ألاَّ يغيب عن الأذهان أن القرآن الكريم قد أعطى للمسلمين منذ أول آية فيه مفاتيح الحضارة بتركيزه فى أول الوحى على محمد ﷺ على الأمر بالقراءة ، والإشادة بالعلم ، وبالقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم ، وبالإنسان حامل هذا العلم ، كما طالب القرآن بإعمار الأرض بالعلم الذى منحه الله للإنسان ، ولم يضع حدودًا ولا قيودًا على البحث العلمى . فالسماء والأرض وما بينهما مجال للبحث العلمى كما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وختام الآية فى منتهى الأهمية ؛ فأبواب العلم لن تُفتح إلا "**لقوم يتفكرون**" بصرف النظر عن معتقداتهم وأجناسهم ولغاتهم. وهذه هى الفريضة الغائبة لدى المسلمين فى عالم اليوم . فحينما تخلوا عن العقل والتفكير وركنوا إلى التدين الشكلى

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

والدروشة الفارغة حدث التراجع الحضارى الذى لا يزال العالم الإسلامى يعانى منه حتى اليوم .

أليس من المجدى والمفيد لأمتنا الإسلامية أن تتحول هيئات ومؤسسات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم إلى مراكز بحثية علمية جادة تسعى إلى اكتشـــافات جديدة فى مجالات العلم المختلفة انطلاقًا من الإشارات العلمية الواردة فى القرآن الكريم؟ وبذلك يمكننا أن نتحدث بحق عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم مؤسسًا على عقولنا وجهودنا ومبادراتنا الخلاقة ، وبذلك أيضًا نستطيع أن نغيِّر من أحوال مجتمعاتنا الإسلامية ونسابق الأمم الأخرى ونثبت بحق أن ديننا وقدراتنا أكبر مشجع لنا على العلم والمعرفة والحضارة وكل ما يفيد الإنسانية ويضمن لها السعادة فى الدنيا والآخرة .

لقد حاز أسلافنا فى بداية تكوين الحضارة الإسلامية قصب السبق فى البحث والدراسة والكشوف العلمية المتنوعة ، وكان الدافع وراء هذا التوجه الواعى - الذى لم يكن له نظير فى أى مكان فى العـــالم حينذاك - هو اهتمام الإسلام بالعلم بجميع أبعاده، وجعله مداد العلمـــاء مساويًا لدماء الشهداء ، واعتبار العلماء أخشى الناس لله ، لأنهم بفضل ما وصلوا إليه من علوم ومعارف أقدر الناس على معرفة سنن الله فى الكون وفهم

أسرار الخلق وإدراك جلال الخالق . ولم يكن لديهم حينذاك مؤسسات ولا مدارس علمية للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، فكان عليهم – إذن – أن يكتشفوا بأنفسهم ما فى هذا الكون من أسرار وآيات إلهية ، ويقوموا بتوظيف ما توصلوا إليه بقدر الإمكان فى خدمة الحياة .

فهل نطمع فى صحوة علمية جديدة تضع العالم الإسلامى مرة أخرى على خريطة العالم المتقدم ، وتجعله مشاركًا مشاركة إيجابية وفعالة فى الثورة العلمية الجديدة ؟

إن هذا أمل نرجو أن يتحول إلى عمل..والله ولى التوفيق..

• • •

(٥)

التضـــامن الغـــائب

تمهـــيد :

لعله من نافلة القـــول أن نؤكد أن التغلب على المشكلة الحضارية فى عالمنا الإسلامى لا يمكن أن يحدث دون أن يكون هناك تضامن حقيقى بين دول العالم الإسلامى وشعوبه . فالمشكلة الحضارية مشكلة معقدة ولا تستطيع دولة واحدة أن تتكفل بحلها نيابة عن بقية دول العالم الإسلامى . وحل هذه المشكلة الحضـــارية فى حاجة إلى وعى عام لدى المسلمين بالمشكلة وما لها من أبعـــاد مختلفة على المستويات المادية والروحية والعلمية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وهذا الوعى العام من شأنه أن يولِّد ثقافة جديدة لدى المسلمين هى ثقافة التغيير، تغيير الأفكار والأفهام والسلوك وإتاحة الفرصة أمام العقل الإنسانى للقيام بدوره المنوط به فى قيادة الأمة الإسلامية إلى بر الأمان . وهذا يعنى البعد عن ثقافة الحفظ والتقليد الســـائدة التى تساعد على نشر الجهل والخرافات والشعوذات .

وحيث إن يدًا واحدة لا تستطيع أن تصفِّق وحدها فإن المسلمين فى حاجة ماسَّة إلى التضامن والتعاون لإحداث هذا الوعى العام لدى جماهير الأمة لينطلق الجميع يدًا واحدة للبناء فى جميع المجالات .

وهذا يتطلب من الأمة الإسلامية وقفة صادقة مع النفس ، ومواجهة جادة لعللها وأمراضها وإرادة صلبة للوقوف فى وجه كل التحديات التى تعترض طريقها نحو قفزة حضارية مأمولة .

وفى الصفحات التالية نود أن نلقى الضوء على قضية التضامن وضرورته لعالمنا المعاصر – وللعالم الإسلامى بصفة خاصة – للخروج من الأزمات الخانقة التى تحيط بعالمنا وبأمتنا الإسلامية من كل جانب .

ويجدر بنا قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الموضوع أن ننظر أولاً فى مفهوم التضامن وماذا يعنى ؟ ..

إن الأمر اللافت للنظر فى هذا الصدد هو أن كلمة تضامن لم ترد فى المعاجم العربية القديمة ، وإن كان قد ورد الفعل (ضَمِنَ) بمعنى ضمن الشىء ضماناً كفل به. ومن هنا فالتضامن مرادف للتكافل . وهذا ما يفهم مما ورد فى هذه القواميس . ولم يرد هذا المصطلح فى القرآن الكريم أيضًا وإن كان قد ورد الفعل (كَفَلَ) ومشتقاته .

ويمكن القول بأن التضامن مصطلح حديث نسبيًا ، وهو صيغة تدل على التفاعل ، مثلها مثل التكافل والتعاون أى أنها لا تكون من جانب واحد ، فتحققها يقتضى طرفين . وقد ورد فى المعجم الفلسفى لمجمع اللغة العربية أن التضامن يعنى :

(ارتباط شيئين أو شخصين أحدهما بالآخر ارتباطًا يجعل كل واحد منهما مؤثرًا فى صاحبه . والتضامنية نظرية تجعل التضامن أساسًا للسياسة والأخلاق والاقتصاد) [1] .

ولكن هذا التعريف أيضًا لا يعبر ــ فى رأينا ــ عن كل أبعاد هذا المصطلح .

ويمكن أن يلحظ المرء فى مفهوم التضامن أمرين مهمين :

أولهما : الإحساس المشترك أو المشاركة الوجدانية بين الأفراد أو الجماعات. وهذا يجعل من التضامن شأنًا من شئون البشر وليس شأنًا من شئون الأشياء .

وثانيهما : الالتزام المتبادل أو المسئولية المتبادلة . ففى صميم التضامن تتركز مسئولية الفرد عن نفسه وعن مجتمعه ، والعكس صحيح أيضـــًا ، وإذا خلا مفهوم التضامن من هذه المسئولية المتبادلة كان مفهومًا فارغًا لا مضمون له .

---

(١) ص ٤٦ .

وحتى يكون هناك تضامن حقيقى بين الأفراد والجماعات فلابد من تحقُّق الإحساس بالمسئولية الذاتية والمشتركة معًا ، وهذا الإحساس بالمسئولية المتبادلة مبنى فى الأساس على الوعى بالبعد الإنسانى الذى يُعد المحرك القوى للتضامن بين البشر . ومن هنا فإن تعميق الوعى بأن (كل فرد جزء من كل) من شأنه أن يمهد السبيل أمام تحقيق التضامن على نحو فعَّال .

ولا يمكن الحديث عن التضامن منعزلاً عن هذا الفهم للبعد الإنسانى . والوعى بالتضامن على هذا النحو يتضمن الوعى بالمسئولية والوعى بالتسامح والوعى بحقوق الإنسان ، والوعى بهدف السلام بين البشر والأديان والحضارات .

ومن هنا فإنه من الملائم تناول هذا الموضوع من هذه الزاوية ، زاوية الوعى بأبعاد التضامن المتعددة الجوانب ، لأنه بدون هذا الوعى وبدون الاقتناع العقلى بالتضامن فإننا نكون كمن يحرث فى البحر .

لقد أكد ميثاق «منظمة المؤتمر الإسلامى » على أهمية التضامن بين دول العالم الإسلامى . وجاء فى مقدمة أهداف الميثاق الذى تمت الموافقة عليه فى جدة فى المحرم من عام ١٣٩٢هـ الموافق مارس ١٩٧٢م النص على **تعزيز التضامن الإسلامى بين الدول الأعضاء** .

وعلى الرغم من مرور خمسة وثلاثين عامًا على ذلك فإن هذا التضامن المنشود لم يجد طريقه بعدُ بصورة ملموسة إلى الترجمة الحقيقية إلى أفعال على أرض الواقع .

وإذا كنا بصدد الحديث عن التضامن بصفة عامة بوصفه أداة تقارب بين الشعـــوب والأديان فإن الأمر الأكثر إلحاحًا بالنسبة لنا نحن المسلمين هو تفعيل هذا التضامن ليكون بالفعل أداة تقارب بين الشعوب الإسلامية. فلا يزال التضامن الإسلامى فى دائرة النوايا الطيبة وفى مرتبة " أضعف الإيمان "، أى : لا يزال – على أحسن الفروض – فى مرتبة التعاطف النظرى أو المشاركة الوجدانية الضعيفة التى لا ترقى إلى ما جاء فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، مثل قوله :

[المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضًا] (١) .

وقوله: **[مثـــل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهـــم كمثل الجســـد الواحد إذا اشـــتكى منه عضـــو تَدَاعَى له ســـائر الأعضاء بالســـهر والحُمَّى]**(٢).

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى (راجع : فيض القدير جـ ٦ ص٢٥٢) .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (راجع : فيض القدير جـ٥ ص٥١٤).

ولا شك فى أن غياب التضامن الحقيقى بين المسلمين يُعد أحد أهم الأسباب الرئيسية لعدم استطاعتهم حتى الآن التكيف على نحو كافٍ مع العصر الحديث والدفاع عن مصالحهم بطريقة فعالة . وغنى عن البيان أن نؤكد أن التضامن يُعد بالنسبة للمسلمين شرطًا لا غنى عنه للبقاء على قيد الحياة . ومن ناحية أخرى فإنهم إذا لم يستطيعوا أن يحققوا التضامن فيما بينهم فلن يكونوا قادرين على تحقيق التضامن مع الشعوب والأديان الأخرى ؛ فمن المعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه .

* * *

ضرورة التضامن :

لقد أصبح هذا العالم ــ كما يقال باستمرار ــ بمثابة قرية كونية ؛ ومن هنا تواجهه مهمة صنع السلام عن طريق التضامن العالمى . وهذه الصورة عن القرية الكونية تصيب إلى حد كبير كبد الحقيقة ، ولكنها لا تدرك إلحاح الموقف إلا بدرجة ضئيلة . ولعل الوصف الأكثر ملاءمة للإنسانية اليوم هو أنها تمثل جماعة استقرت على ظهر سفينة كونية تبحر عبر الفضاء الكونى ، ويتحتَّم عليها أن تتجنب حدوث أى خلل فيها بأى ثمن.

وقد استخدم النبى ﷺ فى حديث له هذا التصوير الرمزى الذى نستعيره هنا للموقف الراهن لعالم اليوم ، لكى نؤكد من خلاله على ضرورة التضامن العالمى بين الناس . وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يرى أن القسم المتميز من مجتمع السفينة إذا لم يهتم بصورة كافية بالقسم الآخر المجرد من الامتيازات فإن هذا القسم الأخير سوف يتسبب إن عاجلاً أو آجلاً ــ بقصد أو بغير قصد ــ فى إعطاب السفينة وبالتالى فى هلاك الجميع [1] .

والواقع أن العالم اليوم يحتاج أكثر من أى وقت مضى إلى مثل هذا التضامن الشامل لإقامة نظام راسخ لسلام عالمى ؛

---

(١) راجع : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، جـ٥ ، ص١٣٢ .

فالعالم فى حاجة إلى نظام سياسى كونى يسعى لمراعاة حقوق كل الناس بمن فيهم الفقراء . وبدون التضامن لن يستطيع العالم حل المشكلات التى تحاصره من كل جانب .

والعالم الإسلامى ــ شأنه شأن بقية دول العالم ــ شديد الاهتمام بطبيعة الحال بكل المحاولات الرامية لاستقرار سياسة العالم . وهذا الاستقرار لن يحدث فى نهاية الأمر إلا من خلال جهود مشتركة لكل الشعوب عن طريق الحوار والتعاون فيما بينها ، وذلك لأن انفراد بعض الشعوب بالسيطرة والتحكم فى مقدَّرات العالم يقود بالضرورة كما يعلم الجميع ــ سواء أردنا أم لم نرد ــ إلى الدكتاتورية ، لأن القوة التى لا ضابط لها تقود فى الغالب إلى إساءة استخدامها . ونموذج « هتلر » فى العصر الحديث ليس ببعيد عنا ، ويُخشى أن يتكرر هذا النموذج اليوم بصورة أكثر بشاعة بحجة محاربة الإرهاب وحماية الحضارة .

إن المدنية التكنولوجية التى تسود العالم اليوم قد جلبت للعالم كله شبكة غير مسبوقة من العلاقات فى شئون الاقتصاد والاتصالات والمعلومات . ولكن «العولمة» فى هذا العصر قد أدت من ناحية أخرى إلى مشكلات خطيرة فى مجالات البيئة والنظم الاجتماعية والثقافية والهوية[1] . وهذه المشكلات ــ

(1) Spiegel, Peter: Interview in : " Die Welt im Umbruch " Flensburger Hefte 11/97,p 132f .

وغيرها كثير ــ من شأنها أن تهدد أمن واستقرار البشرية ، بل وتهدد كذلك وجودها على هذا الكوكب الأرضى .

ومن أجل ذلك يتحتم أن تعالج هذه القضايا فى إطار حوار دينى حضارى . ومثل هذا الحـــوار يستطيع أن يبرز القواسم المشتركة لكل القيم المهمة بين الشعوب والأديان والحضارات ، ويستطيع فوق ذلك أن يعمل على التوصل إلى كيفية تحقيق هذه القيم فى سياق كل حضارة على حدة . وعلى هذا النحو يصبح التعاون فى حل هذه المشكلات المهمة أمرًا ممكنًا .

* * *

الأساس الإنسانى للتضامن :

يقوم التضامن فى التصـــور الإسلامى على أساس متين يتمثل فى وحدة الأصل الإنسانى . فالبشر جميعًا ــ كما يقرر القرآن الكريم ــ قد خُلقوا من نفس واحدة كما جاء فى الآية الأولى من سورة النساء :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[1] .

فأصل البشر كافةً واحد ، كلهم من ذرية آدم وحواء، وليس فى الدين الإسلامى طبقات أو فئات أو أجناس أو أمم لها امتيازات طبيعية تمتاز بها على الآخرين. فالبشر كلهم يحصلون منذ مولدهم على ذات التكريم . فقد كرَّمهم الله جميعًا بوصفهم بنى آدم .

ولا شك فى أن الوعى الحقيقى بهذا البعد الإنسانى عن طريق التربية والتثقيف من شأنه أن يحمل الإنسان على أن يتعامل مع إخوانه من البشر على أساس من التسامح الحقيقى واحترام حقوقهم الإنسانية . وهذا يعنى التضامن معهم فى سبيل احترام وتأكيد هذه الحقوق .

---

(١) سورة النساء : ١ .

التضامن بين الأديان :

ومن هذا المنطلق يطلب الإسلام من المسلمين بكل صراحة ووضوح الاعتراف بكل الأديان السماوية السابقة . ولا يجوز للمسلمين بناء على ذلك أن يفرّقوا بين الأنبياء موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾ (١) .

والقرآن يطلب من أتباع هذه الأديان المختلفة الابتعاد عن كل ما يجلب الشقاق والنزاع ، وضرورة التركيز على التنافس المثمر فى مجال الخيرات :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (٢) .

وهذا الموقف الإسلامى من شأنه أن يوفر المناخ الملائم لتحقيق التضامن بين الإسلام والأديان السماوية جميعًا من ناحية، وبين الأمة الإسلامية وشعوب العالم المختلفة من ناحية أخرى .

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٨ .

وإذا كان الموقف الإسلامى بالنسبة لأتباع الديانات السماوية واضحًا بما فيه الكفاية فإن الموقف الإسلامى بالنسبة لأتباع الديانات غير السماوية لا يقل وضوحًا . فالقرآن الكريم يحضُّ على التضامن مع أتباع كل الأديان ما دام هؤلاء لا يعتدون على المسلمين ، ولا يتآمرون ضدهم . والقاعدة القرآنية فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) .

ويتضح من هذه القاعدة القرآنية أن أمر هذه العلاقة مع غير المسلمين بصفة عامة ــ ما داموا لم يعتدوا على المسلمين ــ ليست علاقة باردة أو علاقة حيادية على نحو سلبى ، وإنما هى علاقة إيجابية تقوم على أصلين أساسيين هما البرُّ والعدل . والبرُّ مفهوم جامع لكل قيم الخير . والعدل يُعد بالنسبة للبشر ضرورة حياتية لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة حقيقية بدونه . وعندما يدعو الإسلام إلى العدل فإنه بذلك يدعو فى الوقت نفسه إلى حرية الإنسان وكرامته وتأكيد حقوقه الإنسانية العامة .

---

(١) سورة الممتحنة : ٨ .

وهناك حقيقة مؤكدة أجمــع عليها مؤرخو الأديان على اختلاف مشاربهم وهى أنه ليست هناك جماعة إنسانية ولا أمة كبيرة ظهرت فى هذا الوجود وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه ، وبمعنى آخر: دون أن تكون لها ديانة ؛ فالنزعة الدينية أصيلة فى نفس الإنسان وليست دخيلة عليه .

وغنى عن البيان أن نؤكد أن الدين هو المكون الرئيسى لكل الحضارات التى صنعها الإنسان على مدى تاريخ البشرية . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على مدى عمق العقيدة الدينية وتغلغلها فى النفس الإنسانية. ولا يزال الدين يؤدى دورًا رئيسيًا فى حياة الأفراد والشعوب على الرغم من كل ما وصل إليه الإنسان من تقدم مادى باهر . ولا يزال الإنسان فى عصرنا الحاضر فى حاجة ماسة إلى هداية الدين وصفاء الروح وعمق اليقين لينعم بالسكينة ويتخفف من حدة اندفاعه المادى وغلبة الأنانية على حياته وسلوكه .

وإذا كان الأمر كذلك ــ وهو كذلك بالفعل ــ فإن الأديان يمكن أن تلعب دورًا مهمًا فى حياة الأمم والشعوب فى عصرنا الحاضر ، وأنها إذا وحَّــدت جهودها وتعاونت فيما بينها وتضامنت فى سبيل التغلب على ما يواجه البشرية من مشكلات

عديدة فإنها يمكن أن تقدم للبشرية الكثير مما يساعدها على الخروج من أزماتها وإنقاذ العالم مما يحيط به من أخطار وشرور لا يعلم مداها إلا الله .

والإسلام في سعيه المتواصل من أجل خير الإنسان وسعادته يقف موقفًا متسامحًا إلى أبعد الحدود من الديانات السماوية السابقة ، ويبدى استعداده للتعاون والتضامن معها من أجل سلام العالم . فالديانات رسالتها رسالة سلام . فقد أرسل الله منذ بدء الخليقة رسله وأنبياءه بالوحى إلى الناس لهدايتهم إلى طريق الحق والرشاد وإبعادهم عن طريق الغواية والضلال . والإسلام يعترف بكل أنبياء الله ورسله الذين حملوا رسالته إلى الناس على مر العصور ــ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ــ ، وهذا يعنى أن الإسلام يؤمن بوحدة الدين. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .

ووحدة الدين فى أصوله وجوهره لا تمنع أن تكون هناك صور متعددة للدين كما هو حادث بالفعل ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (١) ، كما يقول القرآن الكريم . ولكن تعددية الأديان والحضارات التى انبثقت منها على مر التاريخ ، ترجع فى نظر القرآن إلى دين واحد جاءت به رسالات عديدة ترمى إلى هداية الإنسان ومساعدته على تطوير شخصيته والارتقاء بالحياة والأحياء . والتربية الدينية الصحيحة يمكن أن توقظ فى الإنسان الكثير من الإمكانات والقدرات الإنسانية التى تجعل منه شخصية متماسكة لها أصل ثابت فى الأرض ، ولكنها متصلة فى الوقت نفسه بالسماء .

وهناك ــ فى التصور الإسلامى ــ عناصر مشتركة بين الأديان السماوية يمكن أن تشكل أساسًا راسخًا لقيام تعاون مشترك وتضامن حقيقى بين أتباع هذه الأديان . ومن أهم جوانب الاتفاق بين الأديان السماوية الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) : أنها جميعًا تؤمن بإله واحد، أوحى إلى عباده عن طريق الرسل. وهذا الإيمان يتضمن سلوكًا مستقيمًا ودعوة إلى السلام والمحبة بين الناس. وفضلاً عن ذلك فإن كلاً من هذه الأديان الثلاثة لديه

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

منظومة من القيم الأخلاقية متشابهة فى أسسها وملزمة لكل المؤمنين .

ومن هنا حدد الإسلام الأصول الثلاثة التى تجمع بين الأديان والتى يحظى المتمسكون بها برضا الله بعيدًا عن التفاصيل الجزئية . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

ومن ذلك كله يتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام يدعم كل الجهود الهادفة إلى تحقيق التضامن بين الأديان ، وإلى تحقيق التقارب بينها ، والتعاون معها فى كل ما من شأنه أن يعود على البشرية كلها بالخير ، ويحقق للعالم كله الأمن والاستقرار والسلام الذى هو سلامنا جميعًا .

والتضامن بين الأديان لا ينفصل عن التضامن بين الشعوب والتقارب فيما بينها من أجل تحقيق الأهداف المشتركة . وهذا ما نريد أن نوضحه فيما يلى باختصار شديد .

---

(١) سورة البقرة : ٦٢ .

التضامن بين الشعوب :

إن من المعروف أن الإنسان - بطبيعته - كائن اجتماعى لا يعيش وحده ولا يستطيع أن ينعزل عن غيره من البشر ، يتحاور معهم ويتبادلون المصالح المشتركة ، ويشاركون بعضهم بعضًا فى أفراحهم وأتراحهم ؛ ومن هنا فإن الفرد فى حاجة إلى غيره بدءًا بالأسرة الصغيرة وانتهاءً بالمجتمع الكبير .

ونحن جميعًا بوصفنا أعضاء فى هذا المجتمع الكبير الذى هو العالم يعتمد بعضنا على بعض بصورة أو بأخرى ــ كما هو واضح للعيان ــ ومن أجل ذلك فنحن مطالبون كل فى موقعه بأن نتحمل مسئولياتنا عن عالمنا الذى نعيش فيه . والإنسان لا يستطيع تحمل مسئوليته تجاه الآخرين وتجاه العالم بصفة عامة إلا إذا تحمل مسئوليته الذاتية بطريقة سليمة . والتزامات الإنسان تجاه المجتمع الإنسانى ليست التزامات مفروضة عليه من قوة بعيدة عنه ، وإنما هى التزامات مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى .

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أى مسئولية . فلو لم أعدل فى حق الآخرين فإنه لا يجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فى حقى . والإنسان الذى

يتنكر لالتزاماته الأخلاقية تجاه الآخرين هو إنسان يعزل نفسه عن المشاركة الإنسانية . ونظرًا إلى أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى محتاج إلى المجتمع الإنسانى فإن هذه الحالة بالنسبة له تُعد أمرًا مميتًا . ولهذا يبدو أمرًا غريبًا وموقفًا متناقضًا عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها ، وفى الوقت نفسه يريد أن يتضامن الآخرون معه عندما يكون فى حاجة إلى هذا التضامن ، وهو بالفعل محتاج إلى هذا التضامن فى كل وقت .

وقد تحدث النبى ﷺ عن دوائر المسئولية فقال :

[كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راعٍ فى مال سيده ومسئول عن رعيته] (١) .

وهذا الحديث يشير إلى مسئولية كل فرد فى المجتمع فى حدود نطاقه . وهذا يعنى أن كل فرد مهما كان موقعه ومهما كانت مكانته فى المجتمع يتحمل مسئولية لا يجوز له أن يتنصل منها . وهذه المسئوليات تتكامل ولا تتناقض مع بعضها، وتشكل

---

(١) رواه البخارى .

فى النهاية دائرة من التضامن تتسع شيئًا فشيئًا لتشمل البشر جميعًا .

والقرآن الكريم يربط ربطًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية فى قوله تعالى :

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (١) .

وهنا تتساوى القيمة المطلقة لأى إنسان مع قيمة البشرية كلها ، لأن الإنسان من حيث هو إنسان يُعد بالنسبة للمؤمن خليفة لله فى الأرض . فالله قد كرَّمه ونفخ فيه من روحه وأسجدَ له ملائكته .

ومن ذلك يتضح أن موقف المؤمن لا يتفق مع المواقف السلبية . فليس يكفى أن يعمل الإنسان الخير أو يمتنع عن فعل الشر ، بل يجب أن يكون له موقف إيجابى تجاه الظلم . فلا يجوز لنا أن نسكت عندما نرى الظلم يقع على إنسان أو حيوان أو حتى على نبات أو جماد ، بل يجب علينا أن نساعد المضطهدين والمظلومين ــ وما أكثرهم فى عالم اليوم ــ وذلك

---

(١) سورة المائدة : ٣٢ .

بقدر ما نستطيع ، وأن نحاول إنقاذ من وقعوا فى محنة أو من حلَّت بهم كارثة . ومن أجل ذلك يقول النبى ﷺ :

[مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] (١) .

ويقول القرآن الكريم أيضًا :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ (٢) ..

وهذا يعنى أن القـتال فى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يقل شأنًا عن القتال فى سبيل الله .

وهذا حث على التضامن مع المظلومين والمضطهدين من البشر جميعًا بصرف النظر عن جنسياتهم ولغاتهم ومعتقداتهم فهم إخوة لنا فى الإنسانية ، ويتطلعون لأن يحس بهم ويشعر بآلامهم كل المشاركين لهم فى الإنسانية. فالجميع من أصل واحد.

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) سورة النساء : ٧٥ .

وإذا تأملنا الآية القرآنية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (١) ..

فإننا نجد أنها تشير بوضوح إلى ثلاثة أمور :

١ - **الأصل الواحد للبشرية كلها .**

٢ - **حقيقة الاختلاف بين البشر بجعلهم شعوبًا وقبائل متنوعة.**

٣ - **التعارف .**

والتعارف ــ وهو صيغة تفاعل بين طرفين ــ يُعد أول خطوة نحو الفهم المشترك والتعرف على آمال وآلام وتوجهات الآخرين والتفاعل معهم ومشاركتهم وجدانيًا والوقوف بجانبهم ما داموا على الحق ، وبمعنى آخر : التضامن معهم .

ومن هنا فإن التصور الإسلامى للتضامن لا حدود له ، إنه دائرة واسعة رحبة تسع البشرية كلها من كل الأجناس والشعوب والمعتقدات .

ومن شأن هذا التضامن على هذا النحو أن يفتح الباب على مصراعيه أمام الشعوب لتزداد قربًا من بعضها البعض ، فيسود

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

بينها احترام متبادل ، وتسامح متواصل ، وتعاون مشترك فى جميع المجالات ، وتوحُّد فى الهدف الذى يتمثل فى نهاية الأمر فى ترسيخ أسس السلام والاستقرار فى العالم من أجل مزيد من الارتقاء بالحياة والأحياء .

وإذا كان التضامن مع المضطهدين والمظلومين والدفاع عنهم يُعد فى الإسلام فى مرتبة القتال فى سبيل الله فإن الإسلام فى المقابل ينهى عن التضامن مع الظالمين ويحرِّم مناصرتهم ويرفض رفضًا قاطعًا التعاون معهم . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١) .

فالذى يتولى الظالمين ويناصرهم يصبح ظالمًا مثلهم كما هو واضح من هذه الآية الكريمة .

ولكن الإسلام لا يتوانى عن الحث على محاولة منع الظلم وحجز الظالم عن الاستمرار فى ظلمه ، ويعتبر نجاح هذه

---

(١) سورة الممتحنة : ٩ .

المحاولة نصرة للظالم ، وفى الوقت نفسه انتصارًا للمظلومين . وذلك كما جاء فى الحديث الشريف :

[انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قيل : كيف أنصره ظالمًا ؟ قال : تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره] [1] .

* * *

(١) رواه البخارى والترمذى والإمام أحمد (راجع : فيض القدير، جـ ٢ ، ص٥٨) .

خاتمـــة :

وفى نهاية حديثنا عن التضامن نود أن نؤكد مرة أخرى على أن التضامن الإيجابى يُعد أداة فعالة للتقارب بين الشعوب والأديان والحضارات لتحقيق أهداف سامية للإنسان من حيث هو إنسان . **وتتمثل هذه الأهداف فى الأمور التالية :**

١ - نصرة الحق والوقوف بجانب المظلومين والمضطهدين والمغلوبين على أمرهم والدفاع عن حقوقهم الإنسانية .

٢ - إقرار العـدل بوصفه قيمة لا تقبل التجزؤ ولا تعترف بامتيازات أيًا كانت لأى فئة من الفئات .

٣ - إرساء دعائم السـلام والاستقرار فى العالم حتى ينعم الجميع بحقهم فى الحياة وفى الأمن على أنفسهم وعلى ذويهم وعلى معتقداتهم التى يدينون بها ، وعلى أموالهم وممتلكاتهم .

وإذا كان التضامن يؤدى إلى التقارب بين الشعوب والأديان من أجل تحقيق الأهداف المشار إليها فإن التضامن من جانب آخر أمر لا يأتى تلقـائيًا وإنما يأتى نتيجة لجهود سابقة تبدأ بالتعارف الذى نصت عليه الآية التى سبق أن أشرنا إليها : « ... **لتعارفوا** » الذى يؤدى بدوره إلى فهم كل طرف للطرف الآخر والتحاور معه والتعرف على ما يحيط به من مشكلات

وما يواجهه من عقبات وما يتطلع إليه من طموحات ، وهذا بدوره يؤدى إلى التعاطف معه ومشاركته وجدانيًا وينتهى الأمر بالوقوف بجانبه والتضامن الإيجابى معه .

فالتضامن هنا نتيجة وفى الوقت نفسه وسيلة لتحقيق الأهداف المرجوة .

وإذا كنا قد سبق أن أكدنا على أن التضامن الذى هو صيغة تفاعل تتطلب أن يكون هناك طرفان وليس طرفًا واحدًا فإن السؤال الذى يطرح نفسه هو :

إلى أى حد وعلى أى نحو يمكن أن نطلب من المضطهدين والمظلومين الذين هم فى أشد الحاجة للتضامن معهم أن يتضامنوا هم أيضًا مع غيرهم وهل يملكون وسيلة لذلك ؟

إن أقل درجات التضامن تتحقق من خلال المشاركة الوجدانية والتعاطف مع من هم فى حاجة إلى التضامن معهم . وهذه المشاركة الوجدانية يقدر عليها كل إنسان إذا أراد . وفضلاً عن ذلك فإن الأمل الذى يراود المظلومين والمضطهدين فى أن يتضامن معهم الآخرون يعبر عما يمكن أن يتطلعوا إليه فى موقفهم وإيصال صوتهم للآخرين. وبذلك يساعدون الآخرين على التضامن معهم .

ومن هنا فإن لهم دورًا فى تحقيق التضامن الذى هو صيغة تفاعل بين طرفين كما أشرنا إلى ذلك .

وعلى الأمة الإســـلامية أن تضرب المثل فى التضامن الحقيقى انطلاقًا من هذا التصور الإسلامى الواضح .

وأمامنا فى عالم اليوم نماذج رائدة حققت التضامن فيما بينها . وأقرب مثال على ذلك : نموذج الاتحاد الأوروبى فى القارة الأوروبية ، الذى يُعد مثالاً يحتذى فى عصرنا الحاضر . فقد بلغ عدد الدول المنضمة إلى هذا الاتحاد سبعًا وعشرين دولة حتى الآن تشتمل على نصف مليار من السكان ، وتتعاون فيما بينها فى جميع المجالات .

والمسلمون ليســـوا أقل من غيرهم ذكاء ولا فطنة . ومن هنا فإنهم مطالبون بتعزيز التضامن فيما بينهم من أجل التغلب على كل ما يصادفهم من مشكلات وما يقف فى طريق تحضُّرهم ونهضتهم من عقبات .

* * *

(٦)

دور التقريب فى الوحدة العملية للأمة (*)

أولاً ـ مدخل :

حقائق مقررة :

إذا أردنا أن نتحدث عن دور التقريب بين المذاهب الإسلامية فى الوحدة العملية للأمة ، فإن من الملائم أن نعود بالذاكرة إلى البدايات الأولى للإسلام التى كانت المنطلق الحقيقى للأمة الإســـلامية نحو بناء نهضتها وثقافتها ومذاهبها الفكرية والفقهية والعقدية وغيرها . فهذه البدايات فى جوانبها الإيجابية من شأنها أن تضىء لنا مسيرتنا الحاضرة نحو الوحدة العملية للأمة ، وتفتح عيوننا وعقولنا على الشروط الضرورية التى لابد من توافرها لكى نصل إلى الهدف المنشود .

وفى هذا الصدد ليس من غرضنا أن نقوم بسرد تاريخى لبعض الوقائع والأحداث، وإنما نود فقط أن نذكِّر ببعض الحقائق المهمة فى هذا المجال :

(*) محاضرة لمؤتمر الدوحة (قطر) لحوار المذاهب الإسلامية فى يوم ٢٠ يناير ٢٠٠٧م .

١ – أما الحقيقة الأولى فإنها تتمثل فى واقع الاختلافات بين البشر . فقد خلق الله الناس مختلفين فى تفكيرهم وفى كثير من أمور دنياهم . ويترتب على ذلك بطبيعة الحال اختلاف الناس فى تصوراتهم ووجهات نظرهم فى الكثير من الأمور الدنيوية والدينية على السواء . فالناس ليسوا نسخًا مكررة ، فكل فرد له شخصيته المستقلة . وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة الواقعة فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ (١) .

وهذا الاختلاف أو التنوع يُعد عنصرًا إيجابيًا ، ومن شأنه أن يثرى الحياة الإنسانية على المستويين المادى والعقلى ، ويدفع الناس إلى البحث عن أفضل السبل للارتقاء بحياتهم فى جميع المجالات .

٢ – وثانى هذه الحقائق مشروعية الاجتهاد فى الإسلام ، فإذا كان الإسلام يعترف بحقيقة الاختلاف بين البشر فإنه يعترف فى الوقت نفسه أيضًا بما يترتب على ذلك من نتائج تتمثل فى اختلاف الرؤى والتصورات والاجتهادات .

---

(١) سورة هود : ١١٨، ١١٩ .

وتتضح لنا مشروعية الاجتهاد فى الإسلام من حديث النبى عليه الصلاة والسلام عندما أرسل معاذ بن جبل قاضيًا إلى اليمن ، فقد سأله : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ فكان رد معاذ أنه سيقضى بكتاب الله ، فإن لم يجد فبسنة رسول الله ، فإن لم يجد فإنه سيجتهد برأيه[1]، أى أنه سيحكِّم عقله ويجتهد بتفكيره ثم يحكم بمقتضى ذلك . وقد أقره النبى ﷺ على ذلك ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الاجتهاد ، أى : إعمال العقل والفكر فى استنباط الأحكام الشرعية، مبدأ إسلاميًا مقررًا يجب الالتزام به . ولا يجوز لأحد أيًّا كان أن يغلق هذا الباب كما حدث فى بعض فترات التاريخ الإسلامى .

٣ – أما الحقيقة الثالثة فتتمثل فى نسبية اجتهادات الفقهاء والمتكلمين . فمنذ انطلاق مسيرة الفكر الإسلامى ملبية لمتطلبات الحياة المتجددة فى المجتمع الإسلامى ، ومواكبة لكل المتغيرات فى الزمان والمكان ، نشأت مذاهب الفقه الإسلامى التى لم يدَّعِ أى منها أن ما أتى به هو الحق المطلق الذى لا ريب فيه ، وإنما هى اجتهادات بشرية تخطئ وتصيب .

---

(١) أخرج الحديث أبو داود والترمذى فى سننيهما .

ومن هنا كان هذا القول المأثور عن الإمام الشافعى : "رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب" ، وما روى أيضًا عن الإمام أبى حنيفة : " قولنا هذا رأى، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أَوْلَى بالصواب منا " . وقيل له : " يا أبا حنيفة هذا الذى تفتى به هو الحق الذى لا شك فيه " قال : " لا أدرى لعله الباطل الذى لا شك فيه "[1] .

ومن المعروف أن الإمام مالك بن أنس لم يوافق على اقتراح الخليفة أبى جعفر المنصور ومن بعده المهدى والرشيد بإلزام جميع البلاد الإسلامية بكتابه " الموطأ " – الذى هو كتاب فى الحديث وفى الفقه معًا – وقد حاول الرشيد أن يجعله قانونًا ، ويعلِّق نسخة منه بالكعبة ليعلمه الناس جميعًا . ولكن الإمام مالك لم يرتضِ ذلك ونهى عنه تيسيرًا على الناس فى أقضيتهم[2] .

وبالمثل نشأت مذاهب فقهية أخرى لدى الشيعة وغيرها من الفرق الإسلامية . وأهم هذه المذاهب : الجعفرية والإباضية

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبى زهرة ص ٣٦٢ – دار الفكر العربى (دون تاريخ) .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣٠ .

والزيدية . وكلهم فى نهاية الأمر يغترفون من بحر العلم النبوى أو كما يقول الإمام البوصيرى فى البردة :

وكلُّهـم من رسـولِ اللهِ مُلتمِسٌ غرفًا من البحرِ أو رشفًا من الدِّيَمِ

ولم تختلف أى من هذه المذاهب فى أى من ثوابت الإسلام، وانصبت الاختلافات على الأمور الفرعية التى هى محل اجتهاد. وهذا أمر مشروع ولا ضرر فيه . وقد شجع الإسلام الاجتهاد وحث عليه ، بأن جعل للمجتهد الذى يجتهد ويخطئ أجرًا واحدًا وللمصيب أجران[1] .

وهناك بالإضافة إلى المذاهب الفقهية مذاهب كلامية تتعلق بشرح وتفسير أمور العقيدة ، كما يتضح ذلك فى مذاهب علماء الكلام . والمذاهب المعتبرة لدى أهل السنة والشيعة فى هذا المجال متفقة فى الأصول ولكنها قد تختلف فى تفسير بعض القضايا التى لا تمثل – فى رأينا – أى مساس بثوابت العقيدة الإسلامية . ولا يدخل فى هذا الإطار بطبيعة الحال بعض الاتجاهات المتطرفة التى خرجت عن بعض ثوابت الدين .

---

(١) راجع فى ذلك الحديث الذى رواه البخارى عن عمرو بن العاص .

٤ – أما الحقيقة الرابعة فإنها تتمثل فى تحريم التكفير المتبادل بين المسلمين . فقد حذَّر النبى ﷺ من تكفير بعضنا للبعض الآخر فقال : [**أيُّما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**][1] .

ومن هنا فإنه لا يجوز لأى مذهب أن يكفِّر أصحاب المذهب الآخر ويعتبر نفسه المذهب الوحيد الذى توصَّل إلى الحقيقة المطلقة . فكل الاختلافات بين هذه المذاهب الرئيسية لا تعدو أن تكون اختلافات فى وجهات النظر واجتهادات تخطئ وتصيب. والحكم فى نهاية الأمر على مدى صحة أو عدم صحة أى من هذه المذاهب ونوايا أصحابها متروك أمره لله وحده صاحب الحق المطلق فى هذا الصدد كما جاء فى القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) سورة الحج : ١٧ .

وعلى الرغم من أنه من الناحية النظرية ليس هناك حرج ولا ضرر من الاختلافات بين المذاهب الإسلامية فقهية كانت أم عقدية ما دامت قد بعدت عن ثوابت الدين المنصوص عليها فى القرآن الكريم فإن الواقع التاريخى يبين لنا أن هناك عقولاً ضيقة الأفق تميل إلى التعصب لما تقتنع به وتعتقد أنه وحده هو الحق الذى لا مراء فيه . وترمى مخالفيها بالكفر أو الزندقة أو الإلحاد أو الشرك بالله ... إلخ .

وفى التحذير من التكفير يقول حجة الإسلام الغزالى :

"وينبغى الاحتراز من التكفير ما وجد (الإنسان) إليه سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلِّين إلى القبلة، المصرِّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، خطأ. والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك مِحْجَمةٍ من دم مسلم"(١).

ويقول الشيخ محمد عبده فى هذا الصدد أيضًا :

"وليس لمسلم ، مهما علا كعبه فى الإسلام ، على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد" .

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٦ – مكتبة محمد على صبيح ١٩٦٢م .

ويضيف قائلاً : " لقد اشتهر بين المسلمين وعُرِفَ من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر "[1].

ثانيًا ـ التقريب بين المذاهب الإسلامية :

إن الدعوة إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية ليس معناها بأى حال من الأحوال تذويب الفروق بينها ودمجها فى بعضها لتصير مذهبًا واحدًا. ولا يمكن أن يكون ذلك هو المقصود، فلكل مذهب خصائصه التى لا يريد التنازل عنها، وإنما المقصود هو بذل الجهد لتتعايش هذه المذاهب مع بعضها دون تعصب أو خصومات . فهذا التعايش من شأنه أن يتيح الفرصة أمام هذه المذاهب للتعارف والتفاعل المثمر فيما بينها مما يُعد مصدر ثراء فكرى يعود بالفائدة على مسيرة الفكر الإسلامى . والهدف هو التقارب لا التباعد ، والتآلف لا التنافر، والتعاون لا التدابر .

---

(١) د. محمد عمارة : فتنة التكفير ص٧ من منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (ديسمبر ٢٠٠٦م) .

ويمكن القول بأن جوهر المشكلة بين المذاهب الإسلامية يكمن فى قضية التعصب والتكفير التى تعكِّر صفو الوحدة العملية للأمة . فكل منها يكفِّر الآخر ويعتقد أن ما توصَّل إليه هو الحق الذى لا مراء فيه وأن الآخرين على ضلال، خارجون عن الملة ، مبتدعون فى الدين ، وهذا من شأنه أن يعمِّق أسباب الخلاف وعوامل الفرقة بين أبناء الأمة ويغذى بذور التعصب المذهبى التى لا تترك للرأى الآخر مجالاً للإفصاح عن وجهة نظره .

فكيف السبيل إلى إزالة سوء الفهم والقضاء على التعصب المذهبى لدى كل هذه الاتجاهات حتى يمكن أن نصل إلى وحدة عملية للأمة الإسلامية ؟

إن قادة وعلماء هذه المذاهب يتحملون مسئولية توعية أتباعهم بالحقائق التى أشرنا إليها وغيرها ، وبيان أن الجميع مسلمون لديهم قرآن واحد ويعبدون ربًّا واحدًا ويهتدون بهَدْى محمد ﷺ وأن تكفير المسلم للمسلم إثم كبير ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك .

(أ) الحوار هو السبيل الأمثل :

وأفضل وسيلة عملية للقضاء على الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة لدى كل طرف عن الطرف الآخر هى الحوار الذى يُعد اللغة الحضارية الوحيدة التى تليق بالإنسان الذى كرَّمه الله وفضَّله على كثير من خلقه. فالحوار من شأنه أن يتيح الفرصة لتبادل الأفكار وإزالة ما استقر فى الأذهان منذ قرون من سوء فهم كل طرف للطرف الآخر. واللقاء المباشر – فضلاً عن أهميته الكبيرة فى جعل الحوار مثمرًا – من شأنه أن يزيل الجفوة التقليدية والنفور الذى لا مبرر له بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة .

وإذا كنا ندعو إلى حوار الأديان والحضارات ، أى : الحوار مع الآخر المختلف معنا فى عقيدته وثقافته فأولى بنا أن نمارس الحوار (الإسلامى / الإسلامى) فيما بيننا . فاستمرار الجفوة والنفور بين المذاهب الإسلامية يضعف الأمة الإسلامية ويفقدها التعاون فيما بينها ويُطمع فيها أعداءها .

وينبغى أن يركز الحـــوار على القواسم المشتركة بين المذاهب الإسلامية ليجعل من هذه القواسم أساسًا متينًا وراسخًا

للتعاون البنَّاء بين أبناء الأمة على جميع المستويات . فالتشرذم القائم الآن بين أبناء الأمة ، والصراعات المختلفة المشتعلة فى بلاد إسلامية عديدة ، أمور من شأنها أن تعمل على إضعاف الأمة وتجعلها لقمة سائغة فى فم أعدائها .

وإذا كان القرآن الكريم لم يركز فى القواسم المشتركة بين المسلمين والمسيحيين واليهود والصابئة إلا على ثلاث قضايا أساسية وهى : الإيمان بالله وباليوم الآخر والعمل الصالح ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

وإذا كانت هذه الأسس الثلاثة تشكل قاعدة أساسية للحوار بين الأديان السماوية فمن باب أولَى ينبغى أن تكون قاعدة أساسية للحوار بين أصحاب المذاهب الإسلامية والتقريب بينهم. وهم جميعًا مسلمون يتجهون نحو قبلة واحدة ويؤمنون بهذه الأصول الإيمانية الثلاثة .

---

(١) سورة البقرة : ٦٢ .

(ب) التجربة المصرية فى التقريب :

وقد كان لمصر تجربة رائدة فى التقريب بين المذاهب الإســـلامية ، ففى أربعينيات القرن الماضى أُنشئت فى مصر «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية »، وقد انصب اهتمامها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بصفة خاصة . وكان من بين مؤسسيها والمساهمين فى جهودها كبار علماء الأزهر، ومن بينهم الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ محمود شلتوت الذين تقلَّد كل منهم منصب مشيخة الأزهر، بالإضافة إلى الشيخ عبد العزيز عيسى والشيخ محمد المدنى والشيخ على الخفيف وغيرهم .

وفى المقابل ضمت اللجنة عددًا كبيرًا من كبار علماء الشيعة الإمامية فى مقدمتهم آية الله البروجردى والسيد محمد تقى الدين القمى والسيد محمد الحسينى آل كاشف الغطاء وغيرهم.

وكانت اللجنة تصدر مجلة " رسالة الإسلام " التى قامت بنشر العديد من البحوث الرصينة بأقلام كبار العلماء الذين بذلوا

جهودًا مشكورة فى مجال التقريب . وتراث هذه اللجنة محفوظ فى سبعة عشر مجلدًا[1] .

وكان من بين أشد المتحمسين لدعوة التقريب المرحوم الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق الذى يقول فى ذلك :

" لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم ، وأسهمت منذ أول يوم فى جماعتها ، وفى وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة. ثم تهيأ لى بعد ذلك، وقد عُهد إلىَّ بمنصب مشيخة الأزهر، أن أصدرت فتواى فى جواز التعبُّد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول ، المعروفة المصادر ، المتبعة لسبيل المؤمنين ، ومنها مذاهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية .. " .

ثم يقول : " وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة ، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب لفلان وفلان "[2] .

---

(١) راجع : فتنة التكفير – مرجع سابق – ص ١٩ وما بعدها .

(٢) راجع : مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن للأستاذ على عبد العظيم جـ ٢ ، ص ١٨٧ وما بعدها . القاهرة ١٩٧٩م .

ولا شك فى أن هذه التجربة المصرية تجربة رائدة وغير مسبوقة ، وحبذا لو عادت مرة أخرى لتصل ما انقطع من جهود سابقة لتمهيد الطريق أمام الوحدة العملية للأمة .

وتأكيدًا لهذا الدور المصرى الرائد يصدر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة منذ ستينيات القرن الماضى (موسوعة الفقه الإسلامى) التى صدر منها حتى الآن ٢٩ جزءًا وتدور حول ثمانية مذاهب فقهية هى المذاهب السنية الأربعة المعروفة: الشافعى والحنفى والمالكى والحنبلى بالإضافة إلى المذهب الجعفرى والمذهب الزيدى والمذهب الإباضى والمذهب الظاهرى .

وهذا يدل على احتضان مصـــر لكل المذاهب الإسلامية والإفادة من اجتهاداتها لتلبية مستجدات العصر واحتياجات الأمة دون تعصب لمذهب ضد مذهب آخر . وهذا من شأنه أن يرسِّخ مفاهيم التسامح وحق الاختلاف واحترام الرأى الآخر. وذلك كله من شأنه أيضًا أن يمهد السبيل لتوحيد جهود الأمة وتعاونها فيما بينها فى كل ما يعود على الأمة بالخير ، وتضامنها فى مواجهة التحديات وتذليل الصعوبات والتغلب على العقبات للنهوض بالأمة والانطلاق بها نحو آفاق التقدم والازدهار .

ونحن إذ نجتمع اليوم للبحث فى دور التقريب فى الوحدة العملية للأمة فإننا لا ننطلق من فراغ، ولا نبدأ من نقطة الصفر. وأعتقد أننا لو قمنا بدراسة التجارب السابقة فى التقريب بين المذاهب الإسلامية فإننا سنوفر على أنفسنا الكثير من الجهد والكثير من الوقت ، وبالتالى يمكننا الانطلاق من أرض صلبة ومن قواعد راسخة . ولا ينقصنا فى هذا الصدد إلا قوة الإرادة وصدق العزيمة وإخلاص النية وشجاعة القصد ، وانفتاح كل منا على الآخر ، والتسامح فى التعامل بين المذاهب الإسلامية من أجل الوصول إلى ما نرجوه جميعًا لأمتنا الإسلامية من التقدم والازدهار .

(ج) دور التقريب فى دعم الوحدة العملية للأمة :

وإذا كنا قد أفضنا فى الحديث عن جهود التقريب فذلك لما لها من أهمية بالغة فى البناء عليها نحو توحيد جهود الأمة . فالأمر الذى لا شك فيه أن المذاهب الإسلامية قد ترسَّخت فى نفوس وعقول أتباعها منذ زمن بعيد ، وأصبح لها عمق عميق فى وجدانهم ، ومن هنا فإننا إذا استطعنا أن نصل إلى هذه الأعماق من خلال الجهود الصادقة للتقريب بين هذه المذاهب ، ومن خلال إشاعة روح التسامح والتفاهم المشترك ، والبعد عن أسباب الصراعات المذهبية السابقة التى أضرَّت بالأمة وأخَّرت

مسيرتها وعطّلت نهضتها ، إذا استطعنا أن نفعل ذلك فإننا نكون قد قدمنا خدمة جليلة لأمتنا التى أنهكتها الصراعات التى لا طائل من ورائها إلا تفكك الأمة وانهيار وحدتها .

ولا يجوز أن تبقى جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية فى إطار المجال النظرى فقط ، فهذا لن يفيد كثيرًا، كما لا يجوز أن تبقى فى إطار الصفوة من العلماء فى القاعات المغلقة . فالهدف هو أن تمتد هذه الجهود لتصل إلى القاعدة العريضة التى تشكل جسم الأمة .

إن الحوار بين المذاهب الإسلامية أصبح أمرًا ضروريًا ومطلبًا مُلحًّا . ولا يجوز لنا أن نتحاور مع أصحاب الأديان والثقافات الأخرى ولا نستطيع أن نتحاور مع بعضنا البعض .

وعلينا أن ننزع من نفوسنا عُقد الماضى القريب والبعيد إذا أردنا لهذه الجهود أن تثمر الثمرة المرجوة فى جمع المذاهب الإسلامية على كلمة سواء تعيد بناء الثقة بين الجميع . وبالتالى ينفتح أمام الأمة الطريق للوحدة العملية فى كل مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة والأمن ، وإحياء حضارة الأمة مرة أخرى للحفاظ على الشخصية الإسلامية ، وعندئذ يمكن أن يتعامل معنا الآخرون من أصحاب الحضارات الأخرى على أساس من الندية

والاحترام المتبادل لنسهم جميعًا فى بناء صرح السلام العالمى للبشرية كلها .

ولا يجوز لنا أن نتجاهل حقيقة أن الأجيال الحاضرة من أبناء الأمة لم يكن لها ذنب فى الصراعات المذهبية التى حدثت فى الماضى ، ومن أجل ذلك لا يجوز أن نورِّثها أحقاد الماضى القريب أو البعيد ، بل علينا أن نهيِّئ لها مناخًا صحيًا تتنفس فيه نسائم التسامح لا أن نثقل كاهلها بميراث نزاعات وصراعات قديمة آن لها أن تأخذ طريقها إلى متاحف التاريخ .

إن الأجيال الجديدة من أبناء الأمة لن تستطيع أن تسهم فى بناء وحدة أمتها فى ظل مناخ التعصب والكراهية التى لا تزال تسود بين المذاهب الإسلامية ، وعلينا أن ندرك أن هذه الأجيال قد خُلقت لأزمان غير أزماننا وغير أزمان السابقين ، وينبغى علينا أن نقدم لها يد العون لتشق طريقها للعيش فى سلام فى ظل أمة إسلامية معتصمة بحبل الله المتين متعاونة فيما بينها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

والله ولى التوفيق ..

* * *